الكاتب
لثقافة الإنسانية والتقدم

AL KATEB
FOR HUMAN CULTURE
AND PROGRESS
١٣٥
آب ١٩٩١
- السنة الثانية عشرة -
No. (135) August 1991
الثمن ٤ شاقل

Digitized by Birzeit University Library

Digitized by Birzeit University Library

الكاتب
للثقافة الانسانية والتقدم

العدد (١٣٥) آب ١٩٩١ - السنة الثانية عشرة - No. (135) August 1991

AL KATEB
FOR HUMAN CULTURE
AND PROGRESS

Editor
As'ad Al - As'ad
P.O.BOX 20489 Jerusalem
TEL: (02) 856931

رئيس التحرير المسؤول
اسعد الاسعد

هذا العدد

صدر العدد الاول في تشرين الثاني ١٩٧٩

- لماذا تغيب الثقافة من برامج الدعم. الكاتب..... ٢
- اختلال المعادلة يؤي الى اختلال في النتائج. اسعد الاسعد..... ٣
- حتى يظل الرقم الصعب، صعبا. عدنان الكاشف..... ٥
- المعارضة الكويتية بين الديكتاتورية والديمقراطية. د. اسعد عبد الرحمن..... ٨
- «حملة عام ١٩٩١ من اجل النساء»..... ١٥
- قائمة بأسماء شهداء الشهر الرابع والاربعين للانتفاضة. الكاتب..... ١٧
- قراءات في تاريخ فلسطين الاقتصادي. احمد خالد عكاشة..... ١٨
- نحو منهجية تقدمية في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي. جبريل محمد..... ٢٦
- رآء للمناقشة من الحياة... والادب والثقافة. محمود الخطيب..... ٣٤
- دراسة نقدية لمجموعة «وتستمر الحياة». د. عيسى محمد ابو شمسية..... ٣٧
- الحضارات الفنية عبر العصور (٢) الفن المسيحي وانتشاره. فاطمة المحب..... ٤٤
- بين السيناريو والمونتاج: ضاع الممثلون الفلسطينيون وضاعت قضيتهم. يعقوب اسماعيل..... ٤٨
- قمة قصيرة. د. حسن سلواي، حليمة جوهر، غريب عسقلاني..... ٥٥
- شعر. جبر زيدان جزماوي، ماجد ابو غوش، مالك قطينة..... ٦٠
- تجريبية في نبش الذات. وسيم الكردي..... ٦٤

لوحة الغلاف للفنان الفلسطيني جمال الافغاني

الاشتراك السنوي بالدولار

	محليا	اوروبا	بلدان اخرى
للافراد	٣٠	٧٥	١٠٠
للمؤسسات	٥٠	١٥٠	٢٠٠

القدس - هاتف: ٠٢/٨٥٦٩٣١ - ص.ب: ٢٠٤٨٩

أول الكلام

في كل مرة يحتدم الصراع، ثم لا يلبث أن يتراجع، بعد أن تحل المشاكل المختلفة، لهذا الطرف او ذاك، لكن أمرا واحدا يبقى، المعيار الاكثر تأثلا في القضايا المختلفة هذه دونما حل، الا وهو قضية الشعب الفلسطيني.

وفي استعراضنا للاحداث، وخصوصا في العقد الاخير، نجد أن خطا بيانيا واحدا يكاد يجمع بينها، وهو أن معيار مصداقية أي طرف من أطراف الصراع، يتحدد بناء على قدمها للشعب الفلسطيني، وظرب ايننا كان، وكأننا صرنا الجسر الذي تعبر عليه قوافل الحج الى واشنطن، فها هي حرب الخليج تنتهي، لتتواصل على رؤوسنا وان كان هناك من لا يريد أن يرى، فليتوقف عند المحطات العربية الكبيرة، والتي كان آخرها - حتى الآن - ضرب الفلسطينيين في منطقة صيدا، وتجريدهم من أسلحتهم تمهيدا لاخراجهم من الجنوب، فما هو الثمن الجديد الذي سندفعه نحن الشعب الفلسطيني بعد ذلك؟! سؤال مشروع، والجواب عليه لا شك أن وقريب، بل إن ملامحه بدأت تتشكل وتتضح.

المحرر

ولا اريد ان ابتعد كثيرا في تشاؤمي - او تفاؤلي - انما اقول، بأن ما يجري الآن، يذكر بما جرى قبيل التوقيع على اتفاقيات كامب ديفيد، بمعنى آخر، ان امكانيه التوصل الى اتفاق سوري - اسرائيلي، حول الجولان وجنوب لبنان، على غرار ما جرى في سيناء، امر وارد تماما، وهذا ما يلمح اليه بعض المسؤولين الاسرائيليين، والعارفين ببواطن الامور، حيث تتطلع بعض الاوساط الاسرائيلية، الى فتح حوار ثنائي مع سوريا، وانهاء الخلاف معها، ولو على حساب «التنازل»، في موضوع الجولان وجنوب لبنان، بشكل او بآخر، مقابل ضمانات دولية تضمنها الولايات المتحدة، مع المحافظة على قدر كبير من مياه الليطاني، وضمان تدفق المياه القادمة من الهضبة السورية المحتلة الى اسرائيل، وبعد ذلك، تبقى قضية الضفة الغربية، بعد ان تحل قضية قطاع غزة، عن طريق اعادته الى مصر، بادارة محلية فلسطينية، وربما كانت قضية القطاع، اكثر سهولة من الضفة الغربية، اذ ان هناك اوساطا عديدة في اسرائيل، وفي حزب الليكود الحاكم نفسه، تطالب بسرعة التخلص من القطاع، حيث ترى هذه الاوساط، ان لا جدوى من الاحتفاظ بمليون فلسطيني تقريبا، في بقعة لا تتجاوز الـ ٢٥٠ كيلو مترًا مربعًا، وخصوصا بعد تفاقم ازمة البطالة في اسرائيل، اثر تدفق مئات آلاف المهاجرين من الاتحاد السوفييتي واثيوبيا والارجنتين وبلدان اخرى في السنتين الاخيرتين.

وتبقى المعضلة الكبرى، في الضفة الغربية، حيث يعيش مليون فلسطيني، تزحف المستوطنات عليهم من كل جانب، وخصوصا في المنطقة المحيطة بمدينة القدس، حيث يسعى شارون الى اسكان مليون مستوطن في القدس حتى نهاية العقد الحالي، ولا ادري كيف يمكن ان تحل قضية القدس، وسط المعطيات التي تفرضها المستوطنات التي لم تبقِ ولم تذر، وأي وهم يمكن لعاقل ان يصدقه، وكل الوقائع على الارض تحول دون ذلك.

قد يكون صحيحا، ان الشارع الفلسطيني، يتطلع الى وضع حد لمعاناته اليومية، والتي لن تتحقق الا بانتهاء الاحتلال قبل اي شيء، لكن الحقيقة المرة، ان ما يجري لا يبشر بذلك، فضمن ما هو مطروح، ووفق الظروف الموضوعية، فان كل المؤشرات، تشير الى ان الحل القادم، يقوم على اساس واحد، وهو ان سلاما يمكن ان يتحقق بين اسرائيل وجيرانها العرب، لكن الشعب الفلسطيني، سيدفع تضيته الوطنية، وحقوقه، ثمنا لذلك، لأن الاطراف المعنية، تجمع على ذلك، وقد كان الشعب الفلسطيني، العائق الوحيد، امام اي سلام بين اسرائيل والدول العربية، وقد تأخر ذلك، لأن الدول العربية، كانت ترفض المقايضة على هذا النحو المطلوب. وان هي ارادت الآن فلا شك انها رضيت بالصفقة على اصولها، ووفق ما ارتضته لها الادارة الاميركية واسرائيل، وكي لا يبدو ذلك من باب التشاؤم، اذكر فقط، بسيل التصريحات الاسرائيلية الرسمية، والتي تتوالى على لسان اصحاب القرار في اسرائيل، بالاضافة الى ما يجري في المناطق المحتلة، من تصعيد وتسريع في بناء وتوسيع المستوطنات، وكأنما هم في سباق مع الزمن، لفرض واقع طوبغرافي، وديمغرافي، يصعب معه تقسيم البلاد، او حتى «التنازل» عن اي قطعة منها، يساعدهم في ذلك، ما آلت إليه ظروف الفلسطينيين، ومنظمة التحرير وكذلك العالم العربي، وربما العالم بأسره بعد سلسلة النكبات المتتالية، بدءا بانهيار العالم الاشتراكي، وانتهاء بحرب الخليج، والتي ادت الى خلق ظروف لا يتوفر فيها الحد الادنى من المعقول، وبالتالي، فان حلا يستند الى واقع كهذا، لا يمكن ان يتحقق فيه الحد الادنى من الممكن المعقول، بمعنى آخر، فان اختلال المعادلة، لا بد ان يؤدي الى اختلال في النتائج.

ووفق هذا المنطق، فان على القيادات الفلسطينية، ان تتحمل مسؤولياتها التاريخية، وتبدأ في تهيئة الشارع الفلسطيني، لشكل ومضمون ما هي مقدمة عليه، ان هي رضيت بما قُسم، وقبلت بالدخول في البرنامج المطروح، اذ ان الشعارات التي طرحتها الانتفاضة ولاتزال، ليس لها مكان في ما هو مطروح، وخصوصا، البنود الاساسية، مثل الدولة الفلسطينية المستقلة، وحق تقرير المصير، ... الخ.

فالمطروح الآن، لا يمت بصلة الى هذه الشعارات، ولا يحقق الحد الادنى منها، وهذا ما يجب ان تدركه قيادة منظمة التحرير، وتتصرف على ضوئه، وتقرر مواقفها على أساسه، ولا ادري ان كان يعرض على منظمة التحرير الآن، ووفق البرنامج المطروح من قبل الادارة الاميركية، وبقية الاطراف، غير رفع الراية البيضاء، وتوقيع صك الاستسلام. وهذا برأيي كل ما هو مطروح على المنظمة وقيادتها، ولا ارى اي تفسير آخر، او اي طرح آخر، فقد باءت بالفشل كل محاولاتها للدخول في البرنامج والخطة، التي تُرسم عبر زيارات بيكر المكوكية للمنطقة.

ويبدو ان الجميع الآن، وافقوا على رفض التعامل معها، او اشراكها في اي مرحلة من مراحل التسوية، وبأي صورة كانت، ولم تجد نفعا كل المساعي لتبييض صفحتها، او قبولها، حتى وهي عارية تماما، فهل تمضي قدما في ذلك، وتخلع جلدها، أم أن لديها ما تقوله، وتفعله للخروج من مأزق حاد، وقعت فيه جراء أسباب ذاتية وموضوعية؟ الأيام القليلة القادمة، كفيلة بالرد على ذلك.

Digitized by Birzeit University Library

حتى يظل

الرقم الصعب، صعباً

عدنان الكاشف

تتسارع الاحداث والتطورات السياسية الجارية بدرجة غير معقولة من السرعة في الحركة وفي جميع الاتجاهات، وتتوالى التصريحات من كل حدب صوب، من زعيم هذا البلد او ذاك، والكل يدلي بدلوه، وتبرز التناقضات في هذه التصريحات سواء على لسان المسؤولين في البلد المعني، او بين هذا الزعيم وذاك في البلد الاخر، وكأننا اصبحنا في سوق عكاظ، ويظن أصحاب هذه التصريحات انها كلما كانت اكثر سخونة، كلما حققوا المزيد من «انتصاراتهم». ولكن الشيء الوحيد الذي يجمع بين هذه التصريحات جميعها سواء في القاهرة او دمشق او تل ابيب أنها تستهدف الالتفاف على حقوق الشعب العربي الفلسطيني، ومحاولة طمس هويته الوطنية وحرمانه من حقه في تقرير مصيره.

ما كان هذا ليحدث لولا الرد السوري «الايجابي جداً» على رسالة الرئيس الاميركي بوش الى زعماء دول المنطقة، حيث ظل هذا الرد مجهولا ومحجوبا عن الشعب السوري نفسه والشعوب العربية بأسرها، ومهما حاولت الصحافة العربية والعالمية من التكهن حول النقاط التي جاءت في هذا الرد، فان ذلك لن يكشف عن حقيقة الرد والموقف السوري، حيث لم يكن أحد يتوقع أن يصل هذا الرد بعد تأخر دام اكثر من الشهر على ما احتواه، الامر الذي جعل وزير الخارجية الاميركي يذهل حقا منه، ولعل ذهول بيكر نفسه واطلاعه حكام اسرائيل على الرد، جعل المسؤولون الاسرائيليون يوافقون - في الجوهر - على المقترحات الاميركية لعملية «السلام». لقد قال بيكر لشامير أثناء جولته الاخيرة عن الرد السوري: «لقد فوجئت بدرجة ليس اقل منكم من الرد السوري ولزاما علي الاعتراف بأنه مرت مرحلة لم أصدق فيها بأن الرئيس الاسد سيرد بالايجاب على مقترحاتنا. وحتى بعد أن اطلعت على الرسالة الجوابية التي بعثها للرئيس الاميركي بوش، لم تتلاش كافة الشكوك. واردت التأكد من أنها خالية تماما من الشروط . ولهذا قررت القيام بجولتي هذه في المنطقة وبدئها بدمشق، وذلك من اجل

Digitized by Birzeit University Library

الاستماع من الرئيس السوري نفسه للردود التي اثارت استغرابي».

ان الرد السوري الذي قوبل بالترحاب من الولايات المتحدة ومن حليفاتها في المنطقة ودول الغرب، يؤكد أن سوريا، تخلت ليس فقط عن حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، وفرطت في أرضها المحتلة (الجولان)، وانما ابتعدت كثيرا عن الشرعية الدولية وقرارات الامم المتحدة بهذا الخصوص. ولو جاء الرد السوري بعكس ما جاء عليه، وظلت سوريا متمسكة بقرارات الامم المتحدة، وأطلعت دول العالم أجمع، والشعوب العربية، على ذلك، لما ظلت أسيرة للموقف الاميركي الذي حاول أن يلقي فشل جهود «السلام» الاميركية على كل من سوريا واسرائيل!. لو تنبت سوريا هذا الموقف فانها فعلا، ومن خلال تمسكها بالشرعية الدولية وقرارات الامم المتحدة، تعطل عملية السلام الجارية! اللهم الا اذا تحقق التوازن الاستراتيجي الذي سمعناه اكثر من عشرين عاما دون ان ندري أين هو هذا التوازن؟!! بعد أن أطلق العنان لحكومة اسرائيل بتخزين أسلحة أميركية جديدة والاحتفاظ بترسانتها النووية، في الوقت الذي يجري تجريد العراق من كافة أسلحته! ان الذي يجري ضد العراق اليوم ليس موجها ضده فحسب، بل ضد كل الدول العربية مجتمعة ومنفردة، وليس فقط من باب تجريد المنطقة من اسلحة الدمار الشامل، وانما لجعل الدول العربية في حالة عجز دائمة عن مواكبة التطور العلمي التكنولوجي واستخدامه في المجالات السلمية، سواء في الاقتصاد او غيره.

لقد شكل الرد السوري على المقترحات الاميركية نقطة تحول خطرة في الاخلال بمصالح شعوب دول المنطقة، وخاصة شعبنا الفلسطيني، وبدأ المسؤولون الاسرائيليون وحتى الاميركيون وعلماء النفس يدرسون شخصية ونفسية حافظ الاسد، ودفع ذلك بنائب وزير الخارجية الاسرائيلي بنيامين نتنياهو في تساؤله للتلفزيون الاسرائيلي يوم ٧/٢٠: «المهم أن نعرف هل نحن نتعامل مع سادات جديد أم صدام سابق؟

وبعد ذلك بأيام يؤكد شامير انه يوجد سادات جديد في المنطقة مشيرا الى الرئيس السوري. وحتى بعض المحللين والسياسيين الذين شككوا في الرد السوري، باعتباره تكتيكا، او كالوا مديحا مبطنا للاسد، باعتباره داهية وبراغماتي و... و...، أكدوا في تحليلاتهم النهائية ان الطريق الذي سيسلكها الاسد ستكون شبيهة الى حد ما بطريق السادات.

لن نخوض في بعض الاجراءات والتناقضات الشكلية بين مختلف الاطراف التي سوف تحضر «مؤتمر السلام»، ولكن هذه السرعة التي يطالب بها الزعماء العرب بعقد المؤتمر تثير الشبهات اكثر فأكثر، فالشرع وزير خارجية سوريا يطالب بعقده في أقرب فرصة ممكنة، والرئيس المصري مبارك يتمنى عقده اليوم قبل غد، وقبل بدء المؤتمر قدم الزعماء العرب تنازلات مجانية مثل رفع المقاطعة العربية في حال ايقاف اسرائيل المزيد من المستوطنات فكيف سيكون حالهم في حال بداية المفاوضات المباشرة؟! ان الاشهر وربما الايام القليلة القادمة سوف تكشف عن مدى الانحطاط التي وصل اليه الزعماء العرب في التفريط بأرضهم وحقوق شعوبهم، وخاصة شعبنا الفلسطيني، ولن تكون تصريحاتهم حول التضامن مع الشعب الفلسطيني وحقه وحده في اختيار ممثليه الا مجرد هراء وكذب وافتراء، ليس فقط على شعوبهم وانما على انفسهم ايضا، وهذا ما فهمه المسؤولون في كل من اسرائيل والولايات المتحدة.

وازداد وضوحا تقديم التنازلات، في مماطلة كل من مصر وسوريا بعقد الاجتماع الخماسي او الرباعي الذي طالبت به م.ت.ف لايجاد صيغة واحدة للرد على رسالة بوش، ولو كانت قيادة م.ت.ف لم تحط الضوء الاخضر على موافقتها على المقترحات الاميركية، والسماح لبعض الشخصيات بلقاء بيكر في جولاته المكوكية للمنطقة، لربما كانت الظروف والنتائج أفضل من ذلك! ان الدعوة التي تبرز هذه الايام لعقد اجتماع

Digitized by Birzeit University Library

رباعي بين كل من مصر وسوريا والاردن و م.ت.ف لاختيار مندوبي الوفد الفلسطيني لمؤتمر السلام، لن تكون في صالح م.ت.ف والشعب الفلسطيني نفسه، لان الذي رفض الرد الموحد على رسالة بوش، ان يقبل بأن يكون الوفد الفلسطيني / المستقل او المشترك /، من م.ت.ف او بموافقتها، خاصة وأن درجة التنسيق في المواقف بين مصر وسوريا هي اقوى بكثير مع الاردن او م.ت.ف. والاردن في نهاية المطاف لن يقف عائقا في تشكيلة الوفد الفلسطيني، الذي ترغب به كل من مصر وسوريا، ويحظى بموافقة اسرائيل والولايات المتحدة. وهذا ما قاله بيكر في اول جولة له الى الشرق الاوسط، حيث قال انه لن يكرر اخطاء الماضي حول هذه المسألة، مشيرا بذلك الى جهوده السياسية قبل اكثر من عام.

لقد بدأت تصدر تصريحات لبعض المسؤولين الفلسطينيين وعلى رأسهم ياسر عرفات، تقول بأن الولايات المتحدة وأطراف اخرى غير جادة وغير معنية بالسلام الحقيقي في المنطقة، القائم على العدل والذي يستند الى مبادىء الامم المتحدة وحق شعوب المنطقة جميعها في تقرير مصيرها بنفسها. اذا كانت هذه التصريحات صادقة فعلى قيادة م.ت.ف أن توقف تعاملها مع نهج بيكر وعدم الايماز لاي شخصية فلسطينية في المرات القادمة.

ان قيادة م.ت.ف تستطيع أن تلعب دورا كبيرا ورئيسيا في افشال الجهود السياسية الاميركية، وهذا يتطلب اول ما يتطلب الرجوع الى قرارات المجلس الوطني الفلسطيني الاخيرة والتمسك الحازم بقرارات مؤتمرات القمة العربية والشرعية الدولية، والعمل ايضا على تعزيز وحدة الحركة الوطنية الفلسطينية في الداخل والخارج. والانتباه اكثر الى ما يجري داخل الاراضي المحتلة.

لقد كانت قيادة م.ت.ف ومعها شعبنا الفلسطيني تقول ان الرقم الفلسطيني هو الرقم الصعب في المعادلة، فهل سيظل هذا الرقم صعبا على اعدائه؟! ام أننا سنفتح الطريق لهم لينالوا منه؟! إن الشعب الفلسطيني وبعد تجربته القاسية والمريرة مع مختلف اعدائه، اثبت انه قادر على صون حقوقه الوطنية والمحافظة عليها، وتجنيد الرأي العام العربي والعالمي معه، وتأييدهما لهذه الحقوق. ان ايجاد بديل أو جسم فلسطيني ممسوخ يشارك في الوفد الفلسطيني لمؤتمر السلام، لن ينجح، طالما كنا متمسكين بأهداف وتطلعات شعبنا، ومعتمدين اولا وقبل كل شيء آخر، على شعبنا نفسه في الداخل والخارج، والذي لم تخطىء سياسته ابدا. فهل تستطيع القيادة الفلسطينية ان تثبت جدارتها واهليتها في هذه الايام المصيرية؟.

١٩٩١/٧/٢٧

الكاتب

لأبحاث اللغة والأدب والنقد

«لاسباب فنية تأخر في هذا الشهر صدور الملحق الفصلي لشؤون اللغة والأدب والنقد، وسيصدر في وقت قريب متضمنا عددا من الدراسات والأبحاث المتخصصة».

هيئة التحرير

Digitized by Birzeit University Library

المعارضة الكويتية
بين
الديكتاتورية والديمقراطية

د. اسعد عبد الرحمن

بعث الينا د.اسعد عبد الرحمن ثلاث حلقات تتعلق بأوضاع المعارضة الكويتية اليوم، ونحن ننشرها كاملة في هذا العدد، لاطلاع القارىء على ما يدور في الكويت حاليا. والعنوان اعلاه من وضع المحرر في المجلة.

المحرر

(١)
قضايا المعارضة الكويتية ... وهل طفح الكيل؟

من يتابع اخبار ومواقف "حركة المعارضة الكويتية" هذه الايام، يلاحظ حقيقة كونها تتصرف على اساس انه قد "طفح الكيل" عندها بحيث باتت تقول بوضوح قاطع: "ان للصبر حدودا" !!! وتاريخيا، وقبل ان "يطفح الكيل" كان وما يزال من أبرز سمات "حركة المعارضة" في الكويت انها ليست من ذلك النوع الذي يوسم بوصف: "المعارضة العنيفة" او "المعارضة ... من اجل المعارضة". فتلك الحركة تعتمد الاساليب الديمقراطية ولها قضايا غير قضية المعارضة حبا في المعارضة مثلما ان لها وظيفة غير وظيفة "المعارضة"!!! ولعل من ابرز قضاياها التاريخية (١) المنطلق القومي الداعي الى الوحدة العربية وبخاصة في المرحلة الناصرية، وما ينبثق عن ذلك من (٢) دعوة لتثبيت عروبة الكويت التي كانت مهددة بالهجرة (وربما بالتهجير الايراني/الفارسي) اليها، وهو الامر الذي قاد - بالتداعي القومي والعروبي - الى (٣) الدفاع عن عروبة فلسطين التي تهددت ماضيا وحاضرا بالهجرة او بالاحرى بالتهجير اليهودي/الصهيوني اليها، اضافة الى (٤) محاولة الغاء او تخفيف "التمييز العنصري" ضد الكويتيين الآخرين ... وضد العرب الآخرين، ناهيك عن (٥) قضية التحول الديمقراطي وبخاصة وان للديمقراطية في الكويت - وهذا ما فاجأ ويفاجىء كثيرين - جذور بعيدة تعود الى العشرينات من هذا القرن. فما هي الحقائق والوقائع النضالية الخاصة بحركة المعارضة الكويتية تجاه كل واحدة من هذه القضايا الرئيسية الخمس؟

••••

في نطاق القضية الاولى، اندفع ابناء الكويت - منذ منتصف الخمسينات على الاقل - وراء طلائع "حركة القوميين العرب" في الساحة الكويتية التي اسسها وقادها د.احمد الخطيب، متجاوبين لاحقا مع الحركة القومية الاوسع والاشمل ممثلة اساسا في الحركة الناصرية. فمنذ اللحظة الاولى التي بدأ فيها (العدوان الثلاثي) على مصر، التهب الشارع الكويتي - كما بقية الشوارع السياسية العربية - دفاعا عن ارض الكنانة وحركة عبد الناصر في تأميم قناة السويس، ومواجهة الغرب الاستعماري. بل ان ضباطا من الشرطة الكويتية، وعلى رأسهم العروبي المخضرم جاسم القطامي، انحازوا الى

Digitized by Birzeit University Library

المتظاهرين وتركوا منذئذ وظائفهم ومناصبهم الشرطية ليخرطوا في الحركة القومية (فالقطامي، مثلا، اصبح منذئذ وحتى الآن زعيما من زعماء المعارضة الذين فازوا اكثر من مرة بعضوية مجلس الامة الكويتي ومناضلا بارزا من مناضلي المنظمة العربية لحقوق الانسان). وفي هذا السياق، ليس ثمة حاجة للتوكيد على ان الحركة القومية هذه - شبه الملتزمة بمصر الناصرية - وقفت مواقف مشرفة من مجموع القضايا التي واجهتها الامة العربية سواء كان ذلك في الجزائر مثلا، او في لبنان، او في اليمن بشماله وجنوبه، ناهيك عن فلسطين. وفعلا، اصبحت الكويت يومئذ قلعة من قلاع القومية العربية البارزة والمتجاوزة تجاوزا واضحا لحجم الكويت الجغرافي والديموغرافي والسياسي. وغني عن الذكر ان حركة المعارضة الكويتية نجحت في مجال تأكيد الوجه القومي العربي للدولة الكويتية ودون تصادم، وربما بتناغم، مع معظم افراد اسرة الصباح الحاكمة يومئذ.

****

وكما على الصعيد القومي، كذلك على الصعيد القطري. فقد نجحت المعارضة الكويتية، في حركة موازية، بتأكيد الهوية العربية داخل دولة الكويت والمجتمع الكويتي. ولمن لا يعرف ذلك او ينكره، كانت الكويت - ومعها كل منطقة الخليج - مهددة باخطار الامبراطورية الايرانية ذات النزعة الفارسية، التي كان يقودها شاه ايران في مواجهة الحركة القومية العربية. وضمن ممارسات اخرى عديدة، رفعت المعارضة الكويتية لواء تثبيت الهوية العربية للكويت سواء على صعيد ترسيخ عروبة الكويت بالدعوة الى تشجيع "الهجرة العربية" اليها (زيادة اعداد العاملين الوافدين من الوطن العربي و/او تجنيس ابناء القبائل العربية الراغبين والمتنقلين تاريخيا بين مناطق الخليج والجزيرة العربية) او بالدعوة الى اقامة السدود امام طوفان الهجرة الفارسية (وليس العربية) المندفع عبر الحدود مع ايران. وغني عن الذكر ان حركة المعارضة الكويتية - مع قوة المد القومي العربي العام - نجحت ايضا في مجال تأكيد الهوية العربية للكويت الى درجة كبيرة وبخاصة وان دولة الكويت امتازت على غيرها من دول الخليج بأن حجم العمالة العربية فيها كان دائما اكبر وبكثير من حجم اية عمالة اجنبية آسيوية او غربية، ومرة اخرى، ودوفقا لمعلوماتي، فان كل ذلك تم دون تصادم كبير، وربما بتناغم نسبي، مع معظم افراد عائلة الصباح الحاكمة يومئذ.

****

اما على صعيد تثبيت الهوية العربية الفلسطينية و/او الحق العربي في فلسطين، فقد لعبت المعارضة الكويتية، بل عموم الشعب الكويتي، بل ومعظم افراد الاسرة الحاكمة آنذاك، ادوارا قومية ترفع الرأس عاليا. ونحن هنا لا نتحدث عن الموقف القومي المؤيد لفلسطين في مجالس الامة الكويتية المتعاقبة فحسب، ولا نتحدث فقط عن مواقف دولة الكويت الداعمة لكل ما هو حق فلسطيني من على كل المنابر والمنتديات العربية والدولية، ولا نتحدث فقط عن الدعم الاعلامي في مختلف اجهزة الاعلام الكويتية وبخاصة الصحافة (عندما تكون حرة!!) وانما نتحدث ايضا عن فتح المجال واسعا امام الفلسطينيين للعمل في الكويت (طبعا ليس منحة او هبة من احد لأن هؤلاء - بدون اي تواضع زائف - كانوا من خيرة العرب، بل اخلص من كل الاجانب، الذين عملوا في الكويت، ومن اكثرهم عطاءا وانتاجا وكفاءة). كما نتحدث عن المساعدات التي قدمها الشعب الكويتي وقواه ودولته على غير صعيد سواء للقنية الفلطسينية او لمنظمة التحرير الفلسطينية او لبعض الفصائل وبخاصة حركة فتح، ناهيك عن المساعدات الطارئة القيمة التي تميز بتقديمها "الهلال الاحمر الكويتي" بقيادة العروبي العنيد برجس حمود البرجس، وذلك كلما تعرض الفلسطينيون لحالات القصف والحصار والمذابح - وما اكثرها - في هذا القطر العربي او ذاك؛ ومرة ثالثة، امتقد ان نضالات المعارضة الكويتية في مجال دعم قضية وشعب فلسطين قد تمت دون تصادم، وعلى الارجح بتناغم، مع معظم افراد عائلة الصباح الحاكمة آنذاك.

****

كذلك، لعبت المعارضة الكويتية دورا بارزا في التصدي لسياسات "التمييز العنصري" التي طالما سعى الى وضعها وممارستها بعض "النبلاء"، ناهيك عن التردي الذي تفاقم لاحقا على ايدي عدد من "فراعنة الكويت" او "كتابيبي الكويت" - ان جازت العبارة. وفي هذا السياق، من المهم الاشارة الى ان قطاعات واسعة من ابناء الكويت من "النخب الثاني" (ويعرفون باسم "الجنيعات") قد تعرضوا الى "نوع" من التمييز العنصري على ايدي كويتيي "النخب الاول" وعلى اكثر من سعيدا لكن حال هؤلاء لم يكن بسوء حال كويتيين آخرين حرموا من الجنسية الكويتية ومن كثير من الحقوق الاقتصادية والسياسية (وعرفوا باسم "بدون"، اي بدون جنسية!!!). لكن حتى حال هؤلاء لم يكن بسوء حال العرب الآخرين الذين عملوا في الكويت وعاشوا فيها معظم سنوات عمرهم او ولدوا فيها هم وابناؤهم! وقد عرف هؤلاء "بالاجانب"!!! ومما يجدر التنويه به ان هذا "النوع" من البشر يختلفون عن "الاجانب الغربيين" الذين غالبا ما تمتعوا - للاسف المفجع - بامتيازات تفوق كثيرا ما تمتع به خيرة ابناء العرب!! هذا، عدا عن "التمييز" الفادح الذي تعرض له غالبية افراد "العمالة الآسيوية" التي طالما قبعت في "الدرك الاسفل"!! ولهذا كله، لم يكن غريبا ان تتصدى المعارضة الكويتية - ولو بدرجات متفاوتة - الى مختلف انواع "التمييز العنصري" هذه والتي دفعت مرة مندوب اسرائيل "في الامم المتحدة، ومندوب جنوب افريقيا في الامم

Digitized by Birzeit University Library

المتحدة مرة اخرى، لكي يفتحوا ملف "الاجانب العرب" (وليس الاجانب الغربيين!!) في الكويت وليستخلصوا - بغض النظر عن دقة هذا الاستخلاص - ان سوء المعاملة التي يتعرض لها الفلسطيني او العربي الاخر في الكويت هي أسوأ مما يعامل به العربي في الدولة الصهيونية ذاتها او في دولة التمييز العنصري في جنوب افريقيا وبالذات في السنوات الاخيرة على ايدي "الفراعنة الجدد" او "الكتائبيين الجدد" من الكويتيين!! ومرة رابعة، في ظني، ان نضالات المعارضة الكويتية على هذا الصعيد تمت دون تصادم كبير، وليس بدون تناغم، مع عدد فاعل من ابناء عائلة الصباح الحاكمة حينذاك.

****

واخيرا، لعبت المعارضة الكويتية دورا متميزا على صعيد النضال الديمقراطي بمختلف معانيه واشكاله السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولعله في مرحلة ضعف الفكرة القومية العربية وحركتها في السبعينات، اصبحت هذه القضية هي القضية المركزية لحركة المعارضة الكويتية (وغيرها من الحركات العربية المماثلة). وعلى هذه الساحة - ساحة النضال الديمقراطي - دارت معظم معارك المعارضة الكويتية، وماتزال. ولاهمية دور المعارضة الكويتية في النضال الديمراطي، ولكون هذه المعارضة باتت تتصرف على اساس انه قد "طفح الكيل" عندها بعد ان تعرض "العقد الاجتماعي" بينها ... وبين الحكومة للاهتزاز العنيف.

(٢)

حركة المعارضة الكويتية ...
وتراكم الديناميت السياسي

حكاية "حركة المعارضة" الكويتية مع قضية النضال الديمقراطي حكاية طويلة وذات خط بياني متعرج واحيانا شديد التعرج! والمعارضة الحالية التي تمتد جذورها الى بداية الخمسينات وجدت نفسها وريثة لتراث نضالي ديمقراطي كويتي تمتد جذوره حتى العشرينات. ولانه لم يكن ممكنا ان يكون الخلف اقل ديمقراطية من السلف، ولان في الديمقراطية مصلحة اساسية للشعب الكويتي ولحركة معارضته بل ولعائلة الصباح الحاكمة ذاتها، لذلك كله انتهجت "المعارضة الكويتية" نهج ارساء قواعد الديمقراطية في مرحلة ما بعد الاستقلال، والعمل على تعزيزها وترسيخها. ومن جهة اخرى، فان غالبية ابناء آل الصباح آنذاك (والتوكيد هنا على كلمة "انذاك")، من كان منهم على رأس السلطة او على اطرافها او بعيدا عنها، كانوا حريصين على "العقد الاجتماعي" القائل بالديمقراطية الليبرالية السياسية او بالديمقراطية الليبرالية الاقتصادية. ومن جهتها، فان المعارضة الكويتية حرصت على امتشاق "الاسلحة الديمقراطية" القائمة على الحوار والاقناع ... بعيدا عن "الاسلحة الثارية" او الانقلابية او ما شابهها وبخاصة وان العائلة الحاكمة يومئذ (والتوكيد هنا على كلمة "يومئذ") كانت منسجمة مع رغبات وتراث الشعب الكويتي وقواه السياسية في التزامهم واصرارهم على مكاسبهم الديمقراطية. فكيف كان عليه الحال ماضيا (اي في الخمسينات والستينات) وكيف آل اليه في السبعينات والثمانينات وصولا الى التسعينات؟

****

بوضوح وصراحة مباشرة، والى واقع اطلاعي الذي ازعم انه وثيق على بعض الاوضاع في الكويت، لا اعتقد ان "المعارضة الكويتية" استهدفت في الماضي او هي تستهدف في الحاضر قلب نظام الحكم او الاطاحة بالحكام من آل الصباح. وباستثناء قلة من المعارضة المتطرفة راودتها مثل هذه الافكار الجذرية، وبالذات في مرحلة الجموح القومي العربي في المرحلة الناصرية ومرحلة المد اليساري (بما فيه المغامر) في اعقاب حرب ١٩٦٧، لم يكن في وارد فصائل المعارضة في الكويت تهديد (النظام الشرعي) القائم وخصوصا بالاساليب الانقلابية.

فقد كان هدف المعارضة، ماضيا وحاضرا، النضال "من داخل النظام" لانجاز مجموعة من الانجازات والاصلاحات الرئيسية وغير الرئيسية. بل ان تواضع وخبرة وبعد نظر غالبية الحكام من آل الصباح، وبخاصة منذ قبيل (عهد الاستقلال) على الاقل، لعبت ادوارها في "تحبيب" العائلة الحاكمة للشارع الكويتي وبالذات بعد ان ارفقت "العائلة" كل ذلك بسياسة قوامها فتح معقول لصنابير البترودولارات كي تفعل فعلها التحييدي من حول العائلة الحاكمة. وفعلا، نجحت عائلة الصباح في استمالة شرائح هامة وفاعلة في المجتمع الكويتي وفي الحياة السياسية (وبالذات طبقة التجار "التاريخيين") زائدا قطاعات واسعة من الشعب الكويتي، سواء كانوا من ابناء الطبقة الوسطى الصاعدة اجتماعيا وسياسيا، او من غيرها من الطبقات. وقد تجلت حكمة حكام الكويت آنذاك ليس فقط في التوزيع المعقول للفائض النفطية، وانما ايضا في "الانفتاح الديمقراطي" على غالبية الرجال (دون النساء) الكويتيين. وبذلك، نشأ نوع من "العقد الاجتماعي" بمعيديه الاقتصادي والسياسي بين الحاكم والمحكوم. وقد تعزز ذلك "العقد" لاحقا بالنضالات المبكرة للمعارضة القومية في اعقاب (مرحلة الاستقلال) في العام ١٩٦١، وما واكب ذلك من

Digitized by Birzeit University Library

تجاوب من قبل العائلة الحاكمة وخصوصا على صعيد تأكيد عروبة الكويت وتعريبها داخليا وخارجيا، وعلى صعيد الموقف القومي من فلسطين وغير ذلك من قضايا العرب القومية، وكذلك على صعيد الانفتاح دوليا على عالم "عدم الانحياز" ومنظومة الدول الاشتراكية. وهكذا، ساد المجتمع الكويتي، تدريجيا، الاستقرار والتحديث ومضى ذلك المجتمع هادئا في مسيرته السياسية/الاقتصادية/الاجتماعية على مدى "العقد الاجتماعي" القائم والمتعزز الذي مكن الجميع - معا - من انجاز جملة من القضايا القومية والوطنية، او على الاقل انجاز جوانب عديدة من تلك القضايا. غير ان هذا الوضع سرعان ما تعرض لتغيرات اقتصادية/اجتماعية تواكبت مع هزات سياسية أدت بمجموعها الى وصول "الازمة الديمقراطية" في الكويت الان الى اعلى قمة توتر وصلتها، بحيث "طفح الكيل" بالمعارضة فشددت من مقاومتها. فكيف ذلك؟

****

لم يعد من الاسرار، ولا من الاشاعات، الاشارة الى جملة حقائق مادية اقتصادية وسياسية يعرفها كل من عاش على ارض الكويت، كويتيا كان او خلاف ذلك. بل ان هذه الحقائق تأكدت مؤخرا، وعلى نحو ساطع، في العديد من تقارير وسائل الاعلام العالمية الرصينة، ناهيك عن الوثائق الرسمية للمعارضة. بل اكثر من ذلك حيث ان بعض الوزراء والمسؤولين (وبعضهم من آل الصباح الموضوعيين والعقلاء) باتوا يتحدثون علنا وبصوت مرتفع، او بصوت هامس، عن الحقائق الاقتصادية والسياسية والمادية التالية:

اولا:- حقيقة تعرض الكويت لكثير من الضغوط الخارجية المؤثرة، وكي لا نظلم الكويت او احد من حكامها وسياسييها وقادة المعارضة والرأي العام فيها، لا بد من التوكيد على ان دولة الكويت طالما تعرضت لضغوط خارجية مناوئة للديمقراطية جاءت اليها اساسا ممن كنا نسميهم - مازحين وجادين في آن معا - "الدول الثلاث العظمى" المحيطة التي (كي نبقى في نطاق الوصف المهذب) لم تكن ديمقراطية او متحمسة لرؤية اي جار ديمقراطي حولها!.

ثانيا:- حقيقة ان الموجات الغامرة من التعليم والتحديث الاقتصادي في الكويت وسعت من حجوم الشرائح الاجتماعية المتعلقة والمثقفة وسمحت بنمو قطاع واسع من ابناء البرجوازية الصغيرة والمتوسطة والعالية. وغني عن الذكر ان لمثل هذه التطورات نتائجها السياسية وخصوصا من زاوية المطالبة بالديمقراطية والاصرار عليها من قبل الرأي العام الكويتي.

ثالثا:- تواكب ذلك كله مع بدء ظهور "عقلية جديدة" شاذة او، قل "كتائبية كويتية"، مناقضة للتراث الديمقراطي العروبي الكويتي. وقد استندت هذه العقلية الى "ازدهار ظاهرة الاقليميات القطرية" و "ازدهار ظاهرة الحكم التسلطي" و "ازدهار ظاهرة الفساد الرسمي" على امتداد الوطن العربي في السبعينات والثمانينات. وللأسف، وصلت فيروسات هذه الظواهر الى اعمق اعماق تلافيف بعض عناصر "النخبة الحاكمة" في الكويت. وقد تجلى ذلك في بدء عمليات، غير مسبوقة ولا نظير لها، لتجاوز قاعدة "العقد الاجتماعي الكويتي" القائلة: "ان آل الصباح الامارة ... ومن خارجها الوزارة"! وهكذا بدأ الجميع يلاحظ - بعبارات المعارضة وغيرها - "الزحف غير الشرعي" من قبل العائلة الحاكمة لاحتلال نسبة كبيرة من وزارات الدولة، وبالذات احتلال غالبية الوزارات الاساسية ان لم يكن جميعها!.

رابعا:- بل ان الامر تعدى ذلك بما تسميه المعارضة الكويتية، والتجار تحديدا، "باعتداءات على حقوقهم الاقتصادية" بعد اقتحام عدد متزايد من آل الصباح عالم الوكالات والسمسرة والتجارة والبنوك وغير ذلك من الحقول والمجالات التي كانت دوما من نصيب ابناء الشعب الكويتي على اعتبار ان حصة ابناء العائلة من "الكعكة الكويتية" مضمونة من خلال ريع النفط وغيره من املاك الدولة!.

****

اما على الصعيد المعنوي، غير المادي، فقد تردت الامور اكثر وتفاقمت. فلأول مرة في تاريخ الكويت، بدأ عدد متزايد من ابناء العائلة الكويتية الحاكمة يتصرف وكأنهم "الرب الاعلى" و "اولياء النعمة" بكل ما واكب ذلك من عنجهية وصلافة وغرور واستعلاء واستكبار "وعنطزة" لم يشهد لها المجتمع الكويتي مثيلا لا في مرحلة ما قبل الاستقلال، ولا في المرحلة اللاحقة! وقد كانت هذه التطورات التي مست كرامات البعض واغتصبتها اشد وقعا على النفس من اغتصاب الحقوق الاقتصادية. وقد تجلى ذلك في جملة ممارسات ابرزها:

اولا:- الاستقواء المعنوي على طبقة "التجار التاريخيين" وشخصيات "الاسر الكريمة" او "الاصيلة" او "المؤسسة" للامارة. وكم من مرة تمت فيها تجاوزات ذات طابع معنوي اساسا، مفعمة بالاهانات، وموجهة ضد ابناء تلك الاسر الكويتية.

ثانيا:- استوطاء "حيط" القوى المعارضة سياسيا عبر تجاهل مطالبها الشرعية في الديمقراطية وغيرها. بل ان بعض رموز المعارضة الكويتية تعرض للاهانات الشخصية، ثم تعرض للتحرش، ثم للاعتقال طوال اسابيع اشهر ايار وحزيران وتموز من الصيف المنصرم، ويومها، تم حل البرلمان وتوقف العمل بالدستور "حتى اشعار آخر"، ثم جرى تشكيل "مجلس وطني" منتخب/معين قاطعته جميع القوى الاساسية والفاعلة والمحترمة في الكويت.

ثالثا:- ضرب حرية الصحافة وغيرها من حريات عزيزة على قلب كل كويتي مثل حرية عقد "الديوانيات". بل ان هذه الاخيرة تعرضت

Digitized by Birzeit University Library

لحملات اغلاق مهينة قطعا للطريق على بعض القيادات المعارضة من ايصال رأيها لأبناء الشعب الكويتي.

رابعا:- وكان "طبيعيا" ان ينعكس كل هذا التردي والاستكبار ضد الكويتيين بما هو أسوأ منه تجاه العرب الآخرين "الاجانب"!!! وفي هذه المرحلة، ازدادت "القوانين" والاجراءات الرسمية (والتي لا مجال للخوض فيها الآن) التي أهانت المعارضة الكويتية وأبناء الشعب الكويتي قبل ان تهين العرب العاملين في الكويت منذ سنوات وسنوات. وسرعان ما تكاثرت "قوانين التفرقة العنصرية" على نحو خلخل الكثير من مشاعر المحبة والولاء للدولة الكويتية التي طالما محضها العرب العاملون في الكويت لهذه الاخيرة.

****

هذه التطورات جميعها، جعلت الاوضاع في الكويت اوضاعا متفجرة عشية الازمة التي نشبت بين الحكومتين العراقية والكويتية منذ أيار/مايو ١٩٩٠. ولولا الاجتياح العراقي الذي جاء مع وصول الازمة الى ذروتها في ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠ لكان الوضع السياسي في الكويت قد تفجر، او على الاقل تزلزل، من الداخل. فكيف ذلك؟ وما هي التطورات الابرز التي جعلت لاحقا "الكيل طفح" اكثر فاكثر في اوساط المعارضة، بل قل الشعب الكويتي؟.

(٣)

المواجهة في الكويت:
حذار ... قبل ان يسبق السيف العدل!

ما اعجب وما اغرب ما حدث بين النظام السياسي الكويتي وبين حركة المعارضة الكويتية منذ الاجتياح العراقي للكويت في ٢ آب/اغسطس ١٩٩٠! فبدل ان تحرص الحكومة يومئذ - تحت وطأة المتغيرات الجديدة الكبيرة التي اعقبت الاجتياح ونجمت عنه - على ازالة او تقليص حجم ومخاطر (الديناميت السياسي) الذي يعترض تفاهمها مع حركة المعارضة، وجدناها "تحرص" على زيادة حجم ذلك الديناميت علاوة على زيادة احتمالات تفجيره!! والحكومة الكويتية يومذاك التي انتقلت (وبعض مصادر المعارضة تقول "هربت") الى المنفى، وجدناها "تحرص" على تنفير وابعاد الكويتيين عنها بدل ان تسعى الى تحشيدهم من حولها. وبدل ان يحرص كبار المسؤولين الفاعلين في النظام الكويتي يومئذ على الغاء القوانين والممارسات الدكتاتورية، او غير الديمقراطية، لاجتذاب المعارضة الى جانبهم، وجدناهم "يحرصون" على ابعادها - ومعها الجماهير الكويتية - عنهم! وبدل ان يحرص النظام الكويتي على تجاوز تجاوزاته الاقتصادية والمالية السابقة سعيا وراء كسب الشرائح الاقتصادية والتكنوقراطية الفاعلة، اضافة الى الجماهير الواسعة، في المجتمع الكويتي، وجدناه يحرص على ترسيخ وزيادة تلك التجاوزات!!! وبدل ان يحرص النظام الكويتي على اغتنام مناسبة الاجتياح لاعادة جسر علاقاته مع اعرض القواعد من ابناء الشعب الكويتي في "الداخل" و "الخارج"، وجدناه "يحرص" على توسيع الهوة بينه وبينهم!! فكيف حدث ذلك وقائميا؟ وما هي نتائج ذلك؟.

****

فوجوء الكويتيون عموما، وفصائل المعارضة الكويتية خصوصا، بأن بعض رموز النظام السياسي من عائلة آل صباح الحاكمة وحكومتهم، قد صبوا اهتمامهم - وهم في المنفى - على تركيز مقاليد السلطة السياسية والاقتصادية في ايديهم دون غيرهم! بل ان درجة التركيز تلك تفاقمت حين "نجح" اصحاب القرار في العائلة الحاكمة في تنفير عدد من الخبراء والتكنوقراطيين ممن كانوا دائما، او حديثا، في خدمتهم وخصوصا في اعقاب وقف العمل بدستور ١٩٦٢ وحل البرلمان المنتخب ديمقراطيا في العام ١٩٨٦! وفي هذا المجال، تتابعت اخبار استقالات عدد من ابرز هؤلاء الخبراء والتكنوقراطيين احتجاجا على التجاوزات المتفاقمة! بل ان تلك الاخبار تمازجت من جهة اولى مع موجات متلاحقة من الانتقادات الخاصة بالشؤون الاقتصادية والمالية الوافدة من اوساط الصناعيين والتجار وأهل القطاع الخاص عموما الذين وجدوا انفسهم معزولين عن كل ما يتعلق بأموال واستثمارات "الجيل الحالي" و "الاجيال القادمة"، مثلما تمازجت الاخبار ذاتها من جهة ثانية مع انتقادات سياسية وفدت من رموز وكوادر حركة المعارضة الكويتية التي وجدت نفسها معزولة ومغيبة عن القرارات السياسية المتعلقة بمسار الازمة/الحرب الخليجية ناهيك عن القرارات المتعلقة بحاضر ومستقبل الكويت!! وازاء تصاعد "الازمة الداخلية" بين اصحاب القرار من اهل الحكم ... وبين ممثلي اهل البلاد، تبلورت الدعوة الى عقد (مؤتمر وطني) في مدينة جدة السعودية في تشرين الاول/اكتوبر ١٩٩٠. ومع ان حركة المعارضة الكويتية وعددا من التجار كادوا يقاطعون (المؤتمر) لغياب وجود ضمانات وشروط طلبوها سلفا من العائلة الحاكمة، فانهم عادوا وقرروا المشاركة حرصا منهم على "الوحدة الوطنية" في الظروف العصيبة التي كان الجميع يمرون فيها. وفي هذا السياق، نجحت المعارضة في الاستحصال من آل الصباح الحاكمين على وعود شفوية وعلنية اثناء المؤتمر وخصوصا تلك المتعلقة (أ) بضرورة عودة الديمقراطية فور استعادة الكويت و (ب) ضرورة توسيع المشاركة في اتخاذ القرارات الاقتصادية والسياسية حتى انجاز ذلك الهدف. غير ان الامور والتطورات اتخذت مجرى آخر!.

Digitized by Birzeit University Library

****

فلم تمض ايام، والبعض يقول ساعات، على ارفضاض (مؤتمر جدة) حتى اتضح للعالمين ببواطن الامور في "حركة المعارضة الكويتية" ان الشواهد على صحة مخاوفهم السابقة تجاه (المؤتمر) قد طفت على السطح! فعلى عكس ما ارادته المعارضة، اراد القابضون على مقاليد السلطة في العائلة وفي البلاد ان يكون ذلك المؤتمر - فيما كشفت عنه سياساتهم وممارساتهم اللاحقة ووثائق المعارضة - مجرد "مهرجان" لتأييد العائلة واظهار "الالتفاف" من حولها! فاستراتيجية الممسكين بخيوط القرار في العائلة الحاكمة استمرت على ما كانت عليه سواء على صعيد احتكار السلطة السياسية والقرارات المصيرية، او على صعيد احتكار حرية التصرف بثروة الكويت واستثماراتها الخارجية. ووفقا لما تقول به ادبيات المعارضة الكويتية، حرص رموز النظام في المنفى على ابعاد كل صاحب "رأي آخر" خارج اطار العائلة ومقربيها وبغض النظر عما اذا كان حاملوا "الرأي الآخر" من اهل المعارضة الجديدة او من اهل المعارضة القديمة، وسواء كانوا من نوع المعارضة الموالية او من نوع المعارضة الجذرية! وتستطرد ادبيات "الرأي الآخر" متحدثة ليس فقط عن تحول المتنفذين في العائلة الحاكمة ليصبحوا "اصحاب الحوزة السياسية"، وليس فقط عن تحولهم ليصبحوا "اصحاب الحوزة الاقتصادية" ايضا، وانما عن تحولهم كذلك الى حكام من طراز مختلف لا علاقة له بالسابقين من آل الصباح الذين امتازوا تاريخيا بالحكمة وتمتعوا بروح المسؤولية والحرص على "الاسرة الكويتية الواحدة" وعلى مصالحها، علاوة على حرص خاص للاستماع الى رأيها! بل ان مصادر المعارضة اعلنت على الملأ ما وصل الى ايديها ومسامعها من وثائق واخبار أكيدة عن نوايا مبيتة لدى المتنفذين من حكام الكويت الى (١) اعلان الاحكام العرفية ولمدة عامين على الاقل فور استعادة الكويت، و (٢) المباشرة بحملة اعتيالات تستهدف عددا من الفلسطينيين والعراقيين وغيرهم من العرب ... وفي الطليعة منهم رموز بارزة من حركة المعارضة الكويتية سواء كان هؤلاء الاخيرون من سكان "الداخل" او "الخارج"!!! وكانت تلك التطورات مفجعة ... ومؤلمة ... ومحرضة على مزيد من المعارضة والمقاومة!.

****

وفعلا، ورغم الجهود المتواصلة من رموز وكوادر حركة المعارضة الكويتية (التي تنامت قواها بسرعة بين اهل الداخل واهل الخارج) للحصول على التزام صريح وواضح بنوايا المتنفذين من العائلة الحاكمة تجاة استعادة الديمقراطية، انتهت تلك الجهود الى ... لا شيء!!! ذلك ان امير الكويت، لم ينبس ببنت شفة عن الديمقراطية واعادتها الا عندما زاره وزير الخارجية الامريكية جيمس بيكر في منفاه في نهاية شباط/فبراير ١٩٩١ (أي بعد استعادة الكويت). وفي هذه الاثناء، كانت "فرق الاغتيال" المتشكلة برعاية بعض افراد العائلة واجهزتها قد باشرت عملها ليس ضد العرب الاخرين في الكويت فحسب، وانما ايضا ضد بعض رموز المعارضة حيث بدأوا باطلاق النار على الديمقراطي الصلب المحامي حمد الجوعان واصابوه اصابة خطرة. وعن هذه النقطة، تصاعدت حملة المعارضة الى درجة نجحت معها، والبعض يقول مؤقتا، في ايقاف مخطط الاغتيالات التي تستهدفها رغم عدم نجاحها في ايقاف المخطط الذي استهدف الفلسطينيين وغيرهم من العرب المقيمين في الكويت!! ورغم ضغوط المعارضة المستمرة وكل ما جاءها من تأييد خارجي، تمسكت الحكومة الكويتية ايضا بقرارها اعلان الاحكام العرفية (التي هبطت مدتها من عامين الى ثلاثة اشهر قابلة للتجديد) مثلما تمسكت باستمرار الحكومة القديمة (غير الحالية) في تولي مسؤولياتها، مع رفض الاعلان عن موعد محدد لاستعادة العمل باحكام الدستور و/او اعادة برلمان ١٩٨٦، علاوة على استمرار الانفراد بالقرارات السياسية/الاقتصادية الكبرى والحاسمة. وبعد ان بدأت دول الغرب تتعرض لاحراجات متزايدة من بعض المتنفذين الحاكمين من آل الصباح، سواء في مجال التنكيل بالفلسطينيين وغيرهم من العرب المقيمين في الكويت، او في مجال الاصرار على استمرار الاحكام العرفية وتجاهل قيادات الجماهير الكويتية ورغباتها .. الخ، ازدادت ضغوط هذه الدول (مع الضغوط الداخلية المتنامية) بحيث اضطرت الحكومة الكويتية الى اعلان استقالتها يوم ٢٠ آذار/مارس ١٩٩١، واعلان قبول أمير الكويت لتلك الاستقالة مع تكليف ولي العهد باعادة تشكيلها، ثم مبادرة الأمير يوم ١٩٩١/٤/٧ الى الاعلان التزامه بتنشيط مشاركة النساء في الحياة العامة وحفظ حقوق الكويتيين غير المجنسين، علاوة على التزامه الامم باعادة الديمقراطية خلال مدة قد تصل الى (٢١) شهرا لاحقة!.

****

كانت حركة المعارضة الكويتية قد اعلنت مطالبها الواضحة بضرورة تشكيل حكومة ائتلاف وطني، مع استبعاد الوزراء السابقين، اضافة الى فصل مناصب الوزارة عن مناصب الامارة، وتحديد موعد محدد للانتخابات او لعودة البرلمان وبما لا يتجاوز الستة اشهر. وقد وردت هذه المطالب ضمن تصريحات جاءت على لسان زعيم المعارضة الابرز د.احمد الخطيب وصحبه (وبخاصة سامي المنيس وعبد الله النيباري واحمد النفيسي) او على لسان العروبي الناصري المخضرم الشاب جاسم القطامي، او على لسان احمد باقر زعيم جماعة السلف الاسلامية الاصولية، او على لسان الضحية الابرز لمخطط الاغتيالات المناضل حمد الجوعان، او على السنة عدد من القوميين العرب

Digitized by Birzeit University Library

المستقلين المخضرمين ومن ابرزهم عبد العزيز الصقر وجاسم الصقر ويوسف الضعف، ناهيك عن القوميين والديمقراطيين الشاب مثل محمد جاسم الصقر د. احمد بشارة ود. عبد العزيز السلطان ود.غانم النجار (الذي لعب دورا بارزا ومحمودا في فضح انتهاكات حقوق الانسان الكويتي والفلسطيني والمصري ... الخ في فترة ما بعد الحرب). وكذلك الحال، مع بعض الاسلاميين المستقلين مثل د. عبد الله فهد النفيسي. واخيرا، وليس آخر، الموقف الجديد الواضح الذي وقفته حركة الاخوان المسلمين في الكويت (جمعية الاصلاح الاجتماعي) في تأييد المطالب الديمقراطية بالتنسيق مع فصائل المعارضة الاخرى. وعلى صعيد مختلف، ندد او انتقد العديد من زعماء المعارضة "الدوافع الخفية" وراء قرار الأمير والحكومة بتقديم المساعدات المالية المتنوعة لأهل المنفى وأهل الداخل حيث اعتبروا تلك المساعدات "ضئيلة وتافهة" من جهة، مثلما اعتبروها محاولة "لرشوة" المواطنين الكويتيين من جهة ثانية. وفي تطور لاحق، وفي الوقت الذي اشاد فيه بعض رجالات المعارضة ببعض عناصر مبادرة الامير يوم ١٩٩١/٤/٧، اعربوا - مع غيرهم - عن "الاستنكار" او "خيبة الامل" لكون المبادرة خلت من موعد اقرب واكثر تحديدا لاستعادة الديمقراطية (حيث جددوا مطالبهم بضرورة ان تتم الاستعادة في مدة اقصاها ستة اشهر). كما ان رجال المعارضة اعلنوا عن مواقف مشابهة يوم جرى تجاوز مطالبهم الداعية الى تشكيل حكومة ائتلاف وطني لا تتضمن احدا من الوزراء السابقين او من ابناء العائلة الحاكمة ولا تتكون برئاسة ولي العهد. وفي هذا الصدد، قام قادة النظام الكويتي بعمل تصعيدي عندما تجاهلوا يوم ١٩٩١/٤/٢٠ مطالب المعارضة واعلنوا عن تشكيل الحكومة الجديدة ... الرامنة برئاسة ولي العهد والتي ضمت عددا من آل الصباح والوزراء السابقين!.

****

وبعد،

هل يستغربن احد اذا نحن استنتجنا ان الكيل قد طفح عند حركة المعارضة الكويتية نتيجة قصور تجاوب الاسرة الحاكمة، وان الديناميت السياسي المتراكم في الحياة السياسية الكويتية قد بات على وشك انفجار لا نتمناه لاشقائنا الكويتيين. وفي هذا السياق يجدر بنا ان نتذكر تحذير المحامي حمد الجوعان، احد قادة المعارضة، لمراسل صحيفة واشنطن بوست مؤخرا عندما قال: "... الآن امامنا خيار واحد، فاما الدكتاتورية واما الديمقراطية. هذه هي الفرصة الاخيرة امام العائلة الحاكمة.الفرصة الاخيرة لاظهار احترامها للدستور وتفادي الفوضى التي ستعم البلاد ان لم تحترم الدستور. ونحن نذكر ان الكثير من الكويتيين يحملون السلاح في البلاد الآن.".

الى اصدقائنا الاعزاء

ابناء الشعب الفلسطيني

نحن مجموعة من اليابانيين المؤيدين للتوصل الى حل سلمي عادل للقضية الفلسطينية، بمناسبة يوم ٢٩ تموز وهو اليوم الذي اتخذت فيه الجمعية العمومية للأمم المتحدة سنة ١٩٨٠ قرارها بتأييد اقامة دولة فلسطينية مستقلة، يسعدنا ان نعبر لكم عن مشاعرنا وتمنياتنا المخلصة بنجاح جهودكم الساعية الى اقامة سلام عادل ودائم في منطقتكم.

اننا اذ ننظر باهتمام الى الظروف الخطيرة التي يواجهها الشعب الفلسطيني بسبب حرب الخليج، فاننا نتمنى بكل اخلاص ان ترى نهاية للاحتلال وان نرى السلام والتعايش الحقيقيين يسودان ربوع الشرق الاوسط

اننا نؤمن انه من اجل هذه الغاية ينبغي تطبيق قرارات الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولي على كل المشاكل الاقليمية بمساواة وبسرعة.

اننا نؤمن بعمق انه يجب الاستماع الى صوت الشعب الفلسطيني وهو الطرف المعني اكثر من غيره بهذه القضية. في اعتقادنا ان عدم اكتراث المجتمع الدولي لهذه المشكلة هو السبب الرئيسي في عدم التوصل الى حل حتى الان.

ان اكثر ما يؤلمنا بوصفنا مواطنين يابانيين هو وضع الاطفال الفلسطينيين. اننا نعتقد انه من واجب المجتمع الدولي ضمان مستقبل آمن لهؤلاء الاطفال.

يسعدنا ايضا ان نعلمكم ان عشرات الالاف من ابناء شعبنا في مختلف انحاء اليابان يبدون الآن اهتماما واسعا بالقضية الفلسطينية.

Digitized by Birzeit University Library

«حملة عام ١٩٩١ من اجل النساء»

٣- الفلبين

كثيرات من النساء في الفلبين يمارسن انشطة في كل الوان العمل السياسي والشعبي والاجتماعي. وكثيرا ما تنظر السلطات الحكومية والعسكرية الى انشطتهن على انها مخربة؛ وتقول ان المنظمات غير الحكومية التي يعملن معها انما هي جبهات للحزب الشيوعي الفلبيني المحظور وجناحه المسلح، المدعو «جيش الشعب الجديد»، وليس ثمة دليل على ذلك، وتنكر المنظمات هذه المزاعم، وكان «جيش الشعب الجديد» مسؤولا طوال سنوات عن قتل عدد كبير من الجنود والشرطة والمدنيين غير المحاربين.

وعلى الرغم من التأكيدات المتكررة من الحكومة بالتزامها بحماية حقوق الانسان، فان الحركيين النشطين كثيرا ما تطاردهم قوات الحكومة و «يختفون» او يتعرضون لانتهاكات اخرى لحقوق الانسان. واولئك الذين تقتضيهم اعمالهم الذهاب الى المناطق التي يشتبه ان فيها نشاطا للمتمردين، يتعرضون للمخاطرة على وجه الخصوص.

كانت خوزيفا بادكايان Josefa Padcayanممرضة حكومية قبل ان تنخرط في النشاط الصحي الاجتماعي. وفي ١٦ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٨٩، ذهبت مع زميلين لها، هما مارسيلو باوغان Marcelo Bawagan، وارنيل هيدالغو Arnel Hidalgo، الى قرى في وادي زيتوندونغان في مقاطعة كاغايان لتسليم بعض معدات الاغاثة. في ذلك الوقت، كانت تجري في المنطقة عمليات عسكرية مكثفة ضد «جيش الشعب الجديد»، فقام افراد القوات الحكومية بالقبض على العاملين المحيين الثلاثة، ولم يظهر لهم اثر منذئذ.

وقد حاولت عائلة خوزيفا بادكايان معرفة مكان زميليها في المواقع العسكرية. وقد اعترف الضابط آمر الكتيبة التي اشتركت في العمليات، بانهم قد قبضوا عل الثلاثة، لكنه لم يحضرهم، وبعد ذلك قدمت العائلة طلب التماس الى المحكمة لاستصدار امر باحضارها. وعقدت ثلاث جلسات استماع على الاقل بشأن القضية خلال عام ١٩٩٠. ولم يتخذ اي قرار فيها - وهكذا لايزال الموظفون الاجتماعيون الثلاثة «مختفين».

كذلك تعرضت لنفس المصير ماريا نونا سانتا كلارا Maria Nonna Santa Clara، وزميلتها انجيلينا ليناريساس Angelina Lienaresas. وتخشى عائلتاهما كذلك ان تختفيا الى الابد. والمرأتان كلتاهما تعملان في «المركز المسكوني للبحث والتنمية» في مدينة ناغا. ويقدم هذا المركز خدمات للمنظمات المحلية في المنطقة. وكانت ماريا سونا سانتا كلارا تعمل باحثة اجتماعية، في حين كانت انجيلينا لينارياساس متطوعة في المركز. وقد «اختفيتا» يوم ٢٦ نيسان/ابريل ١٩٨٩.

وفي يوم «اختفائهما»، ذهبت ماريا مونا سانتا كلارا وانجيلينا ليناريساس الى منزل امرأة في بارانغايا سانتا كروز. وقد قالت هذه المرأة، فيما بعد، انها لاحظت ان ثلاثة رجال مجهولين كانوا يتبعونهما حين غادرتا.

وقال آخرون من سكان المنطقة انهم فيما بعد رأوا رجالا بملابس عادية يقتربون من المرأتين، ورأى اثنان من قساوسة الكنيسة مساء اليوم نفسه، بين منتصف الساعة الرابعة والساعة الخامسة، امرأة تستغيث من داخل سيارة «جيب» عسكرية وهي تنطلق بسرعة. وعندما عرضت عليهما صورة ماريا نونا سانتا كلارا، اجابا بالتأكيد انها هي المرأة التي كانت في سيارة «الجيب».

وقد ذهبت عائلتها للبحث عنها في مراكز الاعتقال في المنطقة، بل قطعت مسافة طويلة للسفر الى معسكر بعيد حيث سمعوا ان المرأتين اخذتا الى هناك. لكن جهودهم لم تتمخض عن اي نتيجة.

ماريا نونا سانتا كلارا

Digitized by Birzeit University Library

والان تتعرض عائلتها للخطر، وكذلك كل من يحاول مساعدتها. وقد تلقوا تهديدات مجهولة بالموت ويظن انها من افراد الجيش، لكن العسكريين ينكرون على الاطلاق علمهم بمكان وجود ماريا نونا سانتا كلارا وانجيلينا ليناريساس، وكذلك فيما يتعلق بخوزيفا بادكايان وماريسيلو باداغان وأرنل هيدالغو، وهذا على الرغم من الادلة الدامغة في الحالتين على ان النساء والرجال قد قبض عليهم او اختطفهم العسكريون.

٤- تركيا

لايزال التعذيب يرتكب على نطاق واسع وبصورة منتظمة في تركيا. وقد ورد مرارا ان النساء اللاتي يحتجزن في مراكز الشرطة التركية كثيرا ما يُعرّين ويُعذبن من قبل الحراس الذكور، واحيانا بحضور اقربائهن. كذلك وردت دعاوى اغتصاب في مراكز الشرطة. وكثيرا ما يكون من الصعب جدا على النساء، بسبب الملابسات الاجتماعية والثقافية، ان يذكرن بالتفصيل تجارب الاعتداءات الجنسية من هذا النوع او غيره، وقد يؤثرن عدم الابلاغ عن مثل هذه المعاملة المهينة.

وكل من يعتقل في تركيا لاسباب سياسية، يواجه خطر التعذيب، وخاصة حين يكون محتجزا لدى الشرطة في اثناء الاستجواب الاولي. وفي هذه الفترة التي قد تستمر ٣٠ يوما، يُحرم المعتقلون من الاتصال باقربائهم او بمحام.

وقد قدمت «جمعية اقرباء السجناء» قائمة باسماء ٦٤ شخصا احتجزوا في الفترة من منتصف آب/اغسطس الى منتصف تشرين الاول/اكتوبر ١٩٩٠، من قبل

نوروز تركدوغان

الشرطة في المركز الرئيسي للشرطة في انقرة. وكان من بين المعتقلين ٢٩ امرأة، بعضهن طالبات في الجامعة، احتجزن لحضورهن اجتماعات اتحاد الطلبة، او لتوزيع النشرات. كما احتجزت اخريات عندما اغارت الشرطة على مكاتب اتحاد الطلبة و « الجمعية النسائية للديمقراطية ».

كانت نوروز تركدوغان امينة صندوق الجمعية النسائية للديمقراطية. وفي ١٥ ايلول/سبتمبر ١٩٩٠، بينما كانت توزع طبعة من جريدة ميكاديلي في شوارع انقرة اعتقلتها الشرطة، واعتقل معها زوجها وأحد الاصدقاء.

وكانت نوروز تركدوغان في منتصف الشهر الثالث من حملها، واخبرت الشرطة بذلك. ومع ذلك، فقد شهدت بأنها ضربت كثيرا في مركز الشرطة المحلي حيث اخذت اول الامر، ثم على ايدي رجال الشرطة السياسية في المركز الرئيسي للشرطة في انقرة بعد ذلك. استمر الضرب مدة ثلاثة ايام تخللتها فترات كانت توضع خلالها في زنزانة مظلمة ذات ارضية خرسانية رطبة. وذكرت ان الشرطة قد صرحوا انهم يريدون عمدا ان تسقط جنينها.

وفي مساء ١٩ ايلول/سبتمبر، احست بضرورة الذهاب الى دورة المياه، وهناك اسقطت الجنين. وعندئذ نقلت الى المستشفى وافرج عنها في اليوم التالي.

اما غولنهال ييلماز، فهي طالبة اعتقلت في ٥ تشرين الاول/اكتوبر ١٩٩٠، ووضعت في شهادة من صحتين، الخمسة عشر يوما التي قضتها في المعتقل. ولم يسمح لها بالاتصال بمحام، على الرغم من انها كانت تسمع اصوات المحامين الذين حضروا ليمثلوها هي والطلاب الاخرين.

وفي المركز الرئيسي للشرطة في انقرة، وضعت في زنزانة باردة، وقد وصفت كيف كان يُقذف بها الى الجدار، وكيف عُلقت من ذراعيها خمس مرات، في حين عُرِّضت للصدمات الكهربائية في اصابع يديها وقدميها وفي معدتها. وطلبت الشرطة منها ان تشهد ضد اصدقائها، وهددوها بالاغتصاب ان لم توقع على بيان. وقد قبض رسميا على غولنهال ييلماز يوم ١٩ تشرين الاول/اكتوبر، وبقيت في الحبس حتى آخر تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٠.

وفيما بعد، تم القبض رسميا على ٣٢ معتقلا بتهم من قبيل عضوية منظمة غير قانونية. اما الاخرون، فقد افرج عنهم بدون شرط. وقد حمل كثيرون من بين الاربعة والستين معتقلا على تقارير طبية تشهد بوجود جراحات كالسحجات، مما يتفق مع التعذيب. وفيما بعد، قدم كثيرون منهم شكاوى الى مكتب النائب العام؛ لكن لم يجر تحقيق في هذه الدعاوى على حد علم منظمة العفو الدولية.

معلومات مستجدة

Digitized by Birzeit University Library

في ٣٠ كانون الاول/ديسمبر، اعتقلت نوروز تركدوغان مرة اخرى، واودعت - في ٢٤ من نفس الشهر - سجن انقرة المركزي المغلق حيث لاتزال محتجزة حتى الان. ويعتقد انها سوف تحاكم بتهمة العضوية في جمعية غير مشروعة، او لمشاركتها في مظاهرة غير قانونية.

وليس من المزمع توجيه اي تهمة اليها بصدد القبض عليها في ايلول/سبتمبر.

وقدمت شكوى رسمية عن المعاملة التي تلقتها في الفرع السياسي لمقر الشرطة الرئيسي بأنقرة؛ هذا، وقد اقام المدعي العام الدعوى الجنائية على ثلاثة من ضباط الشرطة.

انتهى

قائمة بأسماء شهداء الشهر الرابع والاربعين للانتفاضة

توشك الانتفاضة هذه الايام على دخول شهرها الخامس والاربعين، وسط اجراءات وتحركات سياسية لم تشهد المنطقة مثلها من قبل تستهدف الالتفاف على حقوق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره.

وخلال الشهر الماضي سقط (٦) شهداء، وبذلك يصل عدد شهداء الانتفاضة الى (١٠٨٦) شهيدا.

وفيما يلي قائمة بأسماء شهداء الشهر الماضي.

الجمعة ١٩٩١/٧/٥

- مازن احمد موسى ابو صوي (٢٤ عاما) قرية ارطاس/بيت لحم. اصيب بعده عيارات نارية.

السبت ١٩٩١/٧/١٣

- مأمون مصطفى عبد الرحمن عبيدي (٢٢ عاما) جنين. استشهد خلال مواجهات مع قوات الجيش.

الاثنين ١٩٩١/٧/١٦

- عيسى توما يوسف خليل (فواضلة) (١٢ عاما) قرية عابود/رام الله. دهسته سيارة مستوطن.

الخميس ١٩٩١/٧/١٨

- وليد خالد صادق السوقي (١٧ عاما) جنين. خلال اشتباك مسلح على مشارف المدينة.

السبت ١٩٩١/٧/٢٧

- اياد نمر صباح (٢٢ عاما) مخيم نور شمس/طولكرم. أصيب بعيارات نارية، حيث كان مطاردا منذ اكثر من عامين.

الاثنين ١٩٩١/٧/٢٩

- نبيل قدورة عبد القادر حامد (٢١ عاما) قرية سلواد/رام الله. أصيب برصاص دورية للجيش عندما تعرضت للرشق بالحجارة.

وأسرة تحرير مجلة «الكاتب» اذ تنحني اجلالا للشهداء البررة، تتقدم من شعبنا الفلسطيني وأهل الشهداء بخالص العزاء.

Digitized by Birzeit University Library

قراءات

في تاريخ فلسطين الاقتصادي

اعداد: احمد خالد عكاشة
كلية العلوم والتكنولوجيا
خان يونس - قطاع غزة

(١)

مقدمة البحث

تعريف التاريخ والتاريخ الاقتصادي:

يقول الدكتور اميل توما: "وهكذا تصبح دراسة تاريخ فلسطين دراسة لمجريات التطور في المنطقة كما انعكس على الساحة الفلسطينية او كما ظهرت فيه هذه الساحة". (١) وبالتالي فان دراسة التاريخ الاقتصادي لاي منطقة هو السجل الزمني للقرارات التي تم اتخاذها في الماضي عبر التاريخ او للاحداث التي حصلت وكانت تحمل طابعا اقتصاديا من الدرجة الاولى. ولكل حدث تاريخي منفرد يوجد له مظاهر وخصائص تجعله يرتبط ضمن مجموعة كبيرة من الاحداث تحمل نفس هذه المظاهر او الخصائص العامة لها على الاقل، وكلما امتدت نظرتنا الى التاريخ البشري واتسعت عبر فترات زمنية طويلة تكشف لنا الخيوط التي ترتبط بين الاحداث، اذن ان دراسة التاريخ الاقتصادي لفلسطين تقتضي دراسة الاحوال الاقتصادية التي مرت بها المنطقة، وفي اطار وضع خصائص لكل مجموعة معينة من هذه الاحوال حسب حجم التجانس فيها فاننا نستطيع ان نضع هذا التاريخ في مراحل معدودة وان اختلفت الاحوال الاقتصادية قليلا من الشيء في نفس كل مرحلة بعينها.

لذلك يمكن تقسيم التاريخ الاقتصادي لفلسطين الى المجموعات والمراحل التاريخية التالية:-

اولا:- مرحلة الخلافة الاسلامية: ريكون الطابع العام لهذه المرحلة هو اهتمام دولة الخلافة في شئون الرعية والمحافظة على احوالها بشكل عام، ووجود نوع من الاستقرار فيها، وان تخلله بعض المشاهد من الاقتتال والاحتراب الديني والسياسي والغزوات الصليبية، لكن هذه المرحلة تتصف بالخصائص الاقتصادية التالية:-

١) اعتماد اقتصاد هذه المرحلة على الزراعة بشكل رئيسي وعدم وجود لأي صناعة تذكر، واذا وجدت فانها ستكون بدائية وبسيطة.

٢) الملكية الزراعية للافراد وعدم وجود الاقطاع وان حاول بعض الحكام المسلمين خلق نظام الاقطاع في امتلاك الاراضي مثل عثمان بن عفان، وبعض المماليك الا ان ذلك لم يصل الى درجة وجوده كسياسة عامة للدولة واستغلال الفلاحين بذلك.

٣) عدم وجود اي صناعة تذكر على وجه البسيطة حيث ان اوروبا في ذلك العهد كانت تخضع لنظام الاقتصاد الاقطاعي.

٤) الاهتمام بالاحداث في هذه المرحلة حسب الحجم الاقتصادي لهذا الحدث المذكور،

Digitized by Birzeit University Library

ثانيا:- مرحلة العثمانيين

بدأت فلسطين بشكل خاص والمنطقة العربية بأكملها تدخل مرحلة جديدة من حيث:-

١) ظهور جذور النظام الاقطاعي في البلدان العربية في الوقت الذي بدأت اوروبا الغربية بالتحرر منه نظرا لمساوئه واثاره التدميرية على الاقتصاد والتطور.

٢) في بداية مرحلة تحرر اوروبا الغربية من النظام الاقطاعي وتحولها الى النظام الرأسمالي اخذت توجه انظارها بشكل مكثف اكبر من المرحلة السابقة نحو البلدان العربية بشكل عام، وفلسطين بشكل خاص نظرا لاهميتها في موقع التنافس الاستعماري الحديث.

٣) بدأ ظهور القوميات في اوروبا يؤثر على ظهور قومية اخرى هي اليهودية التي بدأت بالتفكير في فلسطين كوطن لها وبدأت بتنفيذ سياساتها واهدافها الغير معلنة تجاه استيلاءها على هذه المنطقة وتشريد شعبها.

٤) بدأت ظاهرة تسرب الاراضي الفلسطينية الى غير اهلها.

٥) عرقلة التطور الصناعي في هذه المنطقة وذلك عن طريق نهب التراكم الرأسمالي اللازم للعملية الصناعية بالاضافة الى عملية تدمير الزراعة.

ثالثا:- مرحلة الانتداب البريطاني

وفي هذه المرحلة تم فصل فلسطين ولاول مرة منذ فجر التاريخ وبصورة قسرية عن الجزء الام سوريا الطبيعية التي كانت بدورها جزءا من كل اكبر هو الوطن العربي من المحيط الى الخليج. كما بدأت في هذه المرحلة الخطوات العملية لنهب التراب الفلسطيني وتحويله الى كيان اجنبي آخر لم يمت ولم يتصل بهذه الارض وبدأ تدمير الاقتصاد الفلسطيني بشكل شامل والذي لم يكن قادرا في هذه المرحلة على التصدي لتلك الهجمة الوحشية نظرا للتشويهات التي لحقت به والضربات التي اصابته من جراء تطبيق الاقتصاد الاقطاعي في المرحلة السابقة، وفي هذه المرحلة ايضا بدأ انشاء الكيان الرأسمالي السياسي والاقتصادي لدولة اسرائيل متزامنا مع تدمير البناء التحتي للاقتصاد الفلسطيني.

رابعا: وبعد عام ١٩٤٨ خضعت فلسطين الى مزيد من الظروف الصعبة فتم تقسيمها الى ثلاثة اجزاء، الجزء الاول سيطرت عليه اسرائيل والجزء الثاني فقد تم ضمه الى الاردن والجزء الثالث وقع تحت الادارة المصرية، وبذلك اختلفت الظروف الاقتصادية لكل جزء فلسطيني باختلاف الجهة التي تسيطر عليه واختلاف سياسة كل منها العامة والاقتصادية.

خامسا: وظلت هذه الاجزاء متناثرة الى أن عادت مرة اخرى الى الاجتماع. ولكن هذه المرحلة بظروف تختلف وظروف اكثر صعوبة واشد قساوة وهي مرحلة الاحتلال الاسرائيلي للضفة والقطاع عام ١٩٦٧.

وفي هذه المرحلة زادت الامور تعقيدا حيث ازداد النهب في الاراضي الفلسطينية وزادت حدة وفعالية السياسة التدميرية للاقتصاد الفلسطيني وتهميشه واقتلاع الشعب الفلسطيني.

سادسا: وازاء هذا الوضع الذي يزداد سوءا يوما بعد يوم والتراكمات الهائلة على كاهل الشعب الفلسطيني رفض الشعب الفلسطيني المزيد من الظلم والتعسف والعدوان فقام بانتفاضته الباسلة في التاسع من كانون اول لعام ١٩٨٧ لتحدث تحولا جذريا في الحياة الفلسطينية السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تهمنا في هذه الدراسة، ويكون للانتفاضة طابعا اقتصاديا بالاضافة الى طابعها العام والشامل لكل جوانب الحياة، لذا فقد تم تقسيم هذه الدراسة الى ست اجزاء تتبع ست فترات زمنية مختلفة هي:

(١) تاريخ الاقتصاد الفلسطيني في مرحلة الخلافة الاسلامية.

(٢) تاريخ الاقتصاد الفلسطيني في العهد العثماني.

(٣) تاريخ الاقتصاد الفلسطيني في عهد الانتداب البريطاني.

(٤) تاريخ الاقتصاد الفلسطيني بعد عام ٤٨ وحتى عام ٦٧.

(٥) تاريخ الاقتصاد الفلسطيني من ٦٧ وحتى عام ٨٧.

(٦) الاوضاع الاقتصادية في ظل الانتفاضة حيث لا يمكن وضع تاريخ لها لانه من السابق لاوانه البدء بهذه العملية حيث ان الانتفاضة مستمرة.

وفي كل جزء من الاجزاء السابقة سنقوم بتسليط الاضواء على النواحي الاقتصادية التالية:- البناء الاقتصادي، الصناعة، الزراعة، الخدمات، النقود والبنوك، التعليم والاوضاع الديموغرافية وغير ذلك من الامور الاقتصادية.

مرحلة العهد الاسلامي (دولة الخلافة)

الاوضاع الادارية في هذه المرحلة.

ترجع بداية العهد الاسلامي في الشام الى عام ٦٤٠ عندما اتجه القائد الاسلامي عمرو بن العاص جنوبا حتى وقف عند اسوار القدس وعلى اثر ذلك قام بطريرك القدس في ذلك العهد «صفرونيوس» بتسليم مدينة القدس الى الجيوش الاسلامية بطريقة سلمية وقد ساعد على هذا الامر القوة التي تمتع بها الجيش الاسلامي اما العامل الثاني (١) فكان الاختلاف بين بطريرك القدس والامبراطور هرقل وهو اختلاف مذهبي، وقد ترك عمر بن الخطاب

Digitized by Birzeit University Library

الادارة في بلاد الشام على ما كانت عليه في العهد البيزنطي حيث كانت الشام مقسومة الى مناطق عسكرية تسمى اجنادا (جمع جند) وكانت على الصورة التالية:- (٢)

١) جند فلسطين وهو الذي يمتد من رفح جنوبا الى منطقة جنوب الناقورة وعاصمته القدس.

٢) جند الاردن وهو يشمل منطقة بحيرة طبرية وحوض نهر اليرموك وعاصمته طبرية.

٣) جند دمشق وهو اكبر الاجناد مساحة واهمية (ويمتد من جنوب صور الى شمالي طرابلس وعاصمته دمشق.

٤) جند حمص ويضم مناطق حمص وحماة واللاذقية وعاصمته حمص.

٥) جند قنسرين «وقد تم انشاؤه في وقت متأخر في العهد الاسلامي» ويضم مناطق قنسرين وحلب وانطاكية وعاصمته قنسرين.

اي ان فلسطين منذ فجر التاريخ هي ارض عربية احتفظت بارتباطها بالارض العربية المترابطة حتى وجود الاستعمار الذي قسم البلاد العربية الى اجزاء متناثرة حسب اتفاقيات سايكس بيكو.

وقد تغير الوضع في عهد المماليك الذين وضعوا تقسيما اداريا آخر (٣) حيث خضعت فلسطين الى كل من مملكة دمشق ومملكة غزة ومملكة صفد، وضمت مملكة غزة في ذلك العهد (١٢٥٠ - ١٥١٦) نيابة غزة، نيابة عسقلان نيابة يافا الى حدود نيابة قيسارية من الجهة الشمالية، ونيابة العريش من الجهة الجنوبية، وضمت كذلك نيابة الخليل ونيابة بيت المقدس من الجهة الغربية.

اما مملكة دمشق فقد احتوت باقي الاجزاء الفلسطينية. وقد تبعت فلسطين منذ بداية العهد الاسلامي لدولة الخلافة في الحجاز الا انها تبعت لدولة الخلافة في بغداد بعد العام ٧٥٠ ولم يستمر الوضع كذلك حتى تبعت للدولة الطولونية في مصر وفي دولة المماليك في القاهرة.

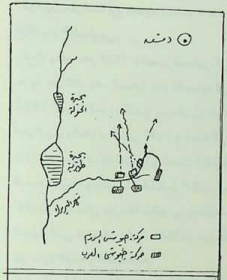

حركة الجيوش المتحاربة في فلسطين وهي الجيش العربي الاسلامي والجيوش الرومية.

الاوضاع الاقتصادية في العهد الاسلامي:-

قبل التعرض للوضع الاقتصادي الفلسطيني في هذه المرحلة يجب القاء نظرة عامة على الفكر الاقتصادي السائد في ذلك العهد، ويمكن القول بأن هذا الفكر الاقتصادي قد عبر عنه احد المؤرخين الاسلاميين (٤) في القرن الرابع عشر الميلادي.

يقول الكاتب في مقدمته:- //«واما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجود طبيعية للمعاش واما الفلاحة فهي متقدمة عليها بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية فطرية لا تحتاج الى نظر ولا علم». // ثم يضيف الكاتب في موضوع آخر موضحا حجم الصناعة وطبيعتها في قوله :// «واما الصنائع فهي ثانيتها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانظار ولهذا لا توجد الا في اهل الخصره //ويفهم من سياق ما ورد في هذا الشرح ان التقسيم الاقتصادي لقطاعات الاقتصاد القومي كانت على اربعة قطاعات رئيسية هي: القطاع الاول وهو قطاع الزراعة الذي يصفه بأنه اقدم قطاعات الاقتصاد وجودا ولا يحتاج الى علم ونظر واول ما عرفه الانسان هو الزراعة، واما الصناعة فهي القطاع الثاني وهي اهم من الزراعة، ويختص القطاع الصناعي بالتقدم العلمي وتطور الحياة البشرية.

واما القطاع الثالث وهو قطاع التجارة الخارجية والتبادل والخدمات فيرى انها من الاوجه الطبيعية للمعاش، ويضيف بأن قطاع الخدمات ضروري للاقتصاد القومي ولكنه لا يعتبره من الاوجه الطبيعية للمعاش //في ان الخدمة ليست بالمعاش الطبيعي (٥).

اولا: القطاع الزراعي

أ- علاقات الملكية وتوزيع الاراضي

كان السكان في الاقاليم العربية للدولة الاسلامية يعتمدون بصورة اساسية على الزراعة وتربية الماشية والصيد والرعي، وكانت الارض قبل ذلك العصر مصدرا للانتفاع بها وليس مصدرا للملكية، حيث كان هؤلاء الناس يعتمدون على اسلوب البدو والترحال ويهاجرون من منطقة لاخرى بين الحين والاخر طلبا للرزق وللارض الصالحة لرعاية الماشية فيها، وقد اشترك جميع افراد القبيلة في الانتفاع بها الارض وملكيتها. ومن ذلك يمكن القول بأن

Digitized by Birzeit University Library

علاقات الملكية السائدة هي علاقات جماعية من حيث الملكية والانتاج، وفي هذا الوقت كان الغرب يعيش في عصر الاقتصاد الاقطاعي. (٦)

وقد تطورت الاوضاع بعد انتشار الاسلام في شبه الجزيرة العربية رغم استقرار هذه المنطقة واخذ الاهالي يملكون الارض ويستغلونها حيث ان الخلفاء المسلمين اخذوا ينزعون الارض من كل شخص يتقاعس عن الانتفاع بها ويتركها بدون استغلال. واخذت هذه الاحوال تمتد من خلال الفتوحات الاسلامية الى بلاد مصر والشام والعراق.

ب- الحاصلات الزراعية في فلسطين

كان لاهتمام الخلافة الاسلامية باستقرار شئون الرعية فيها، ان تطورت وتقدمت مجالات الحياة عامة والزراعة خاصة التي كانت تعتبر اهم القطاعات الاقتصادية في تلك المرحلة، وزادت عائدات الخراج الاسلامي منها نظرا للتطور الحاصل في هذه المنطقة.

وكانت الحاصلات الزراعية التي انتشرت في تلك المرحلة كثيرة ومتنوعة حتى يمكن القول بأن الاقاليم العربية في هذه المرحلة وصلت الى حالة الاكتفاء الذاتي بل وتعدت ذلك الى مرحلة التصدير للعالم الخارجي. ويصف احد المؤرخين في هذا المجال وضع الحاصلات الزراعية في فلسطين وفي سوريا يشكل عام قائلا (٧) «وينتشر السمسم والخروب والذرة البيضاء والليمون البطيخ والعشمش وبصل عسقلان، وقد سمى الاوروبيون المشمش بأسم «خوخ دمشق».

اما الفلفل فقد استولى الصليبيون عند استيلائهم على قيسارية في سنة ١١٠١ على اكثر من ستة عشر قفة ليبرة من الفلفل كحصة من الغنائم التي اصابتهم ولذلك عرف الغرب التوابل الزكية واخذ يشيع استعماله في الاطعمة الغربية.

كما ترك الغرب العسل الذين كانوا يستعملونه لتحلية طعامهم واستعاضوا عنه بالسكر المستخرج من القصب الذي يزرع على سواحل سوريا ولبنان وفلسطين كما اخذوا يصنعون منه بعض الوصفات الطبية.

وقد كان للقمح والشعير دورا كبيرا كذلك في الحياة الاقتصادية في بلاد الشام فقد ادى انتشار القمح والشعير وجميع انواع الحبوب الى نجاح سياسة الاكتفاء الذاتي والتأثير في منح نوع من الاستقرار والامن على ربوع هذه المنطقة او وجود نوع من الاستغلال الاقتصادي

ثانيا: القطاع الصناعي في فلسطين:-

لم تكن الصناعة بمعناها الحالي قد عرفت بعد، حيث ان اوروبا في ذلك العصر كانت تخضع تحت نظام الاقطاع، (٨) وفي الاقطار الاسلامية فان الزراعة وان كانت هي اهم قطاعات الاقتصاد واكثرها انتشارا فاننا نرى ان الصناعة التي سادت في هذه المرحلة هي التي اعتمدت على الايدي العاملة والقوى البشرية بشكل خاص دون ان يكون للالات اي دور في العملية الانتاجية حيث لم تكن الالات قد اكتشفت بعد، ومن اهم تلك الصناعات والتي ارتبطت بالانتاج الزراعي مثل صناعة استخراج الزيت التي اعتمدت على زراعة الزيتون والسمسم وصناعة الحرير التي اعتمدت على تربية دودة القز على اشجار التوت، اما صناعة الفخار فلم تعتمد على الانتاج الزراعي حيث كانت الطين الموجودة في جنوب فلسطين هي المادة الخام اللازمة لها. وعندما عرفت البشرية بعض الصناعات الاخرى قام السكان بممارسة بعضها مثل صناعة الحياكة، والتجارة وطحن الحبوب، وغيرها من الصناعات التي تواجدت في تلك المرحلة ×

ويضيف بعض المؤرخين (١٠) ان هناك دلالة لوجود صناعة السفن والقوارب في عكا وقد حصل العرب على تعليم هذه الصناعة من الجيش البيزنطي بعد هزيمته واستطاع معاوية في عهده تطوير هذه الصناعة حتى اصبحت في المرتبة الثانية بعد احواض الاسكندرية، وكانت المواد الخام اللازمة لهذه الصناعة وهي الخشب تأتي من لبنان.

ثالثا: التبادل الخارجي والتجارة (١١)

عرفت الاراضي الفلسطينية ابان الحكم الاسلامي في اراضيها نوعين من التجارة الداخلية والخارجية

واما التجارة الداخلية:- فكانت تتم عبر اقاليم الدولة الفلسطينية وعبر اراضيها ليتم تبادل السلع والخدمات والمحاصيل الزراعية بينها، وكانت هذه التجارة تستمر وبشكل دائم بغض النظر عن اختلاف وتغير الظروف وتبدلها، ويرجع ذلك لحاجة سكان البلاد الفلسطينية الى مثل هذا النوع من التجارة الذي يسهل عليهم الاستفادة من المحاصيل والسلع المتنوعة والتي تنتشر على امتداد الارض الفلسطينية

وبالنسبة للتجارة فكانت تتراوح ما بين الضعف والقوة تبعا لتغير الاحوال والظروف الاقتصادية والسياسية في المنطقة بأكملها، وتغير طرق المواصلات وطرق التجارة والقوافل العالمية.

وهناك مثالين لهذا التحول في الطرق العالمية للتجارة ادى الى اضمحلال التجارة في فلسطين، (١٢) والمثال الاول هو تحول طرق التجارة العالمية الذي كان يمر عبر بلاد الشام الى طريق يمر عبر الخليج العربي وهذا ادى الى اعتماد التجارة في البلاد الفلسطينية على الاقاليم الداخلية فقط فأصبحت هذه التجارة تتم عبر مراكز ومدن فلسطين،

Digitized by Birzeit University Library

اما المثال الثاني الذي ادى الى ضعف التجارة الخارجية في فلسطين عندما تحولت طرق التجارة الرئيسية من جنوب فلسطين الى الطريق الشرقي عبر مرتفعات الاردن مباشرة وعدم المرور بطريق الساحل الفلسطيني (١٣)

وقد ادى الاهتمام الصليبي في عهد الغزوات الصليبية في فلسطين بصناعة السفن التي انتشرت في ايطاليا فاصبحت المدن الفلسطينية الساحلية تلعب دورا مزدوجا في التجارة الخارجية حيث اصبحت بمثابة موانىء عسكرية للصليبيين من ناحية وموانىء تجارية لتصدير واستيراد البضائع من ناحية اخرى.

واصبحت القوارب المصنوعة في مدينة جنوة الايطالية تستورد الى هذه المدن وتقوم بالمقابل بتصدير الفواكة والخمور من فلسطين.

رابعا:- فلسطين والازمات الاقتصادية:-

من المعروف دائما ان الاقتصاد يرتبط بالظروف السياسية والاستقرار السائد في اي قطر معين، وعندما تنشب ازمة سياسية داخلية او خارجية تؤدي بالضرورة الى ترك اثار واضحة على مجمل الاقتصاد الوطني بشكل عام، وتترك ملامحها على قطاعات الاقتصاد القومي بمختلف اشكالها.

الازمة الاقتصادية الاولى:- (١٤)

ظهرت بوادر الازمة الاقتصادية الاولى في فلسطين منذ عام ٧٨٨ ميلادية وفي عصر الخلافة العباسية حيث ساءت الاحوال الاقتصادية نتيجة لسوء الاحوال السياسية بعد الاقتتال الذي نشب في هذا العام بين العباسيين والامويين وقد تأثرت فلسطين بهذا الصراع السياسي حيث انقسم سكان فلسطين الى قسمين في تأييدهم لاطراف هذا الصراع. فالاول هم اهل «اليمن» وهم الذين يؤيدون الدولة الاموية ويسكنون بشكل خاص في الجنوب الفلسطيني، اما اهل قيس وهم الطرف الثاني فيسكنون في مناطق الخليل والقدس ورام الله.

وقد نشب القتال بين الطرفين فترة طويلة الى ان بدأ الضعف يدب في هذه المناطق وزاد من هذا الوضع سوءا الاحداث الطبيعية التي حصلت في فلسطين مثل الزلازل والاوبئة التي ضربت البلاد عام ١٠٣٣م ، ١٠٣٤م والتي استمرت لمدة اربعين يوما بصورة متقطعة، وهذا التردي في الوضع السياسي والاقتصادي جعل البلاد هدفا لاطماع الصليبيين في تلك الفترة فبدأوا يقومون بالحملات الصليبية منذ العام ١٠٩٦ ميلادية.

ظواهر الازمة

عانى الاقتصاد الفلسطيني اثر هذه الازمة من التدهور في الزراعة الفلسطينية فاصبحت لا تكفي حاجة السكان بعد ان كانت تكفي لمنح السكان الاكتفاء الذاتي. بل كانت بعض المحاصيل تتوجه للتصدير الخارجي مثل زيت الزيتون، وبعد ان كانت زراعة متقدمة ومستقرة في وقت عانت فيه اقتصاديات اوروبا من التخلف الذي اصابها ضمن سيطرة الاقتصاد الاقطاعي.

وقد ترك اهل فلسطين الاعمال والنشاطات الاقتصادية المختلفة واندفعوا وراء القتال والخلافات السياسية بين الحكام مما ادى الى تدهور جميع النشاطات الاقتصادية الاخرى. واصبحت فلسطين بعد ذلك خالية من التجارة الخارجية وضعفت حركة التبادل والتجارة الداخلية بين مدنها ومراكزها.

الازمة الاقتصادية الثانية (١٥)

ادت الازمة الاقتصادية الاولى الى تردي وسوء الاحوال الاقتصادية في فلسطين وجميع دول المنطقة بسبب ظروف القتال الداخلي وهذا التردي في الاوضاع جعل هذه البلدان هدفا لاطماع الاستعمار الصليبي مما جعلهم يقومون بغزو البلاد من خلال الحملة الصليبية ١٠٩٦ ميلادية. وفور وجودهم في هذه البلاد اخذوا يشنون الحروب بمختلف اشكالها والوانها ضد الشعوب العربية ومن هذه الوسائل الحربية التي استعملوها (١٦) الحرب الاقتصادية التي تستهدف اخضاع الشعوب الاخرى والعربية منها لهيمنة الاستعمار الاوروبي بالوسائل والضغوط الاقتصادية، واستغل الصليبيون وجود النقود الفلسطينية منذ القدم (١٧) واختلاف انواعها الى ذهبية وفضية فقاموا بتزييف النقود الفضية بشكل خاص وخلطها بمعدن النحاس، وقاموا كذلك باغراق السوق بالعملة الاوروبية التي كانت منخفضة القيمة.

هذا الانتشار الواسع من النقود المزيفة والاوروبية رخيصة القيمة كانا سببا في احداث موجات من التضخم والازمة النقدية في الاعوام ١٠٩٠ ميلادية ١٠٩٨ و ١١٢٦ ميلادية.

ظواهر الازمة:

تركت الازمة الاقتصادية الثانية التي حلت بالبلاد الفلسطينية آثارا سلبية على الاقتصاد الفلسطيني منها:-

١) انخفاض قيمة الدينار الذهبي والزيادة الكبيرة في كمية النقود النحاسية وهذا يعني اقتراب هذه الحالة من ظاهرة التضخم المالي المعروفة في العصر الحديث.

٢) سبب هذا التضخم والزيادة في كمية النقود المزيفة ظاهرة ارتفاع الاسعار العامة والغلاء الفاحش.

٣) اغراق السوق العربية المحلية بالعملات الاجنبية المزيفة منها والمنخفضة القيمة من ناحية اخرى.

وقد قام صلاح الدين الايوبي بالرد على تلك الحرب الاقتصادية التي استهدفت اهالي

Digitized by Birzeit University Library

فلسطين واهالي الدولة الاسلامية بقيامه بعدة خطوات واجراءات استهدفت اصلاح الاوضاع المتردية للتخلص من هذه الازمة ومن هذه الخطوات

أ) قيامه باطلاق حرية التجارة لجميع سكان فلسطين والدول المجاورة الاصليين ومنع الاجانب من مزاولة هذا النشاط والتداول بالعملات.

ب) وضع صلاح الدين في هذه الفترة ما يسمى بالدعم المالي والمادي لتحسين الاوضاع الاقتصادية كسياسة عامة للحكومة بالاضافة الى انها وسيلة اقتصادية لتحسين شئون الرعية كواجب ديني، ومنح هذا الدعم للسكان الاصليين فقط دون غيرهم من الاجانب.

ج) تخفيف وتجميد العمل بنظام الضرائب الذي كان معمولا به في تلك الفترة وتخفيف عملية جمع الاموال الى اضيق الحدود.

خامسا: وزارة المالية في العهد الاسلامي:

يتفق كثير من الباحثين في التاريخ الاسلامي على تسمية وزارة المالية ونسبتها الى بيت المال في العهد الاسلامي الاول، حيث ذكر «عمر فروخ» في كتابه «تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية. ص ٢٢٤ ان وزارة المالية في هذا العهد هي بيت مال المسلمين وقد كانت مصادر هذا البيت تتألف من عدة وجوه يمكن تقسيمها حسب امكانية الاستخدام لها الى قسمين:-

القسم الاول: ويشمل على الخمس وهو خمس ما يغنمه الجيش الاسلامي في اوقات الحرب، واما الفيء وهي تلك الاراضي التي يحتلها الجيش الاسلامي اما الخراج فهو تلك الحصة التي يفرضها خليفة المسلمين على الارض التي يتم منحها بالقوة وهذه الحصة يجب ان تعتمد على مصادر الشروع وفق ما تقره الايات القرآنية، واما الجزية فهي تلك الاموال التي يدفعها اهل الكتاب عن انفسهم شخصيا.

القسم الثاني وهو الزكاة: وقد حددت الايات القرآنية والاحاديث النبوية تلك الحصة التي يجب ان يدفعها كل مسلم وفق معايير معينة تعتمد على الشرع الاسلامي وتختلف الزكاة عن القسم الاول من مصادر ايرادات بيت المال (وزارة المالية) من حيث تكليف استخدامها واقتصاد انفاقها على مصادر معينة فقط حددتها أية معينة ولا يجوز اخذ اي جزء من هذه الزكاة وانفاقها في اوجه اخرى غير المنصوص عليها في الاية (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل).

وعلى ذلك فان بيت المال مجرد حرز لها ولا يحق للخليفة فيها الا للوجه الذي حدده الشرع له وهم الاصناف الثمانية المذكورة في الاية السابقة.

ويستدل من سياق الشرح السابق ان الجانب الاجتماعي والذي يؤثر على توزيع الثروة بين الافراد وهو الجانب الذي يتعلق بمصاريف الزكاة. يؤدي الى القضاء على الكثير من الظواهر المعاصرة مثل وجود المعدمين والفقراء وهذه الظواهر ان وجدت ستؤدي الى التخفيف من مكانة وهيبة الدولة الاسلامية.

واما الجانب الاخر الذي يتعلق بالموارد الاخرى لبيت المال غير الزكاة هي موارد غير مقيدة يستطيع الخليفة التصرف بها وفق مصلحة الامة التي تعني قوة الامة الاقتصادية وعدم اعتمادها وعدم تبعيتها للآخرين.

كما يفهم اخيرا ان الديناميكية الاقتصادية للدولة الاسلامية في ذلك العهد والتي اشرفت على الاقاليم العربية وسادت فيها، ومنها المساحة الفلسطينية كانت مضبوطة بقوانين ولوائح ونظم دينية، وبالتالي فان هذه السياسة لا بد ان تكون عادلة الى ابعد الحدود، وتؤدي الى تحقيق التقدم والرخاء الاقتصادي لجميع افراد الامة.

خلاصة المرحلة:

ارتبطت الاوضاع في فلسطين في المرحلة الاسلامية ودولة الخلافة حتى بداية مرحلة الاتراك العثمانيين حيث ان هذه المنطقة شهدت احداثا تاريخية كبيرة ومتنوعة اثرت على هذا الاقليم بالازدهار تارة وبالويلات الاقتصادية المتردية تارة اخرى. حسب سلطة هذا الحاكم او ذاك الا ان الدراسة التاريخية من ناحية اقتصادية تتطلب وضع مراحل تاريخية متجانسة ولها خصائص معينة تختلف المراحل فيها تبعا لاختلاف خصائصها.

فمثلا شهدت المرحلة الاولى للدولة الاسلامية ودولة الخلفاء الراشدين تطورا ملحوظا في الحياة الاقتصادية حيث بدأت ايرادات هذه الدولة تزيد بفعل الانتصارات التي تؤدي الى مزيد من الغنائم والايرادات العامة، وزادت مساحة الاراضي التابعة للدولة ونرى في عهد عثمان بن عفان انه لم يأخذ بما فعله اسلافه من الخلفاء الراشدين حيث حرصوا على مصلحة الامة، ولكنه قام بالانفاق من بيت المال لصالحه ولاهل بيته ولاقاربه وكبار اهل قريش (١٨) وقد خلق ذلك الوضع معارضة شديدة ادت الى نشوب نقمة اثرت على الاوضاع الاقتصادية في جميع ارجاء الدولة الاسلامية.

وفي عصر الدولة الاموية ورغم انغماس بعض خلفاء بني امية في اليهود والعبث والاسراف والاقتتال الداخلي الا ان الوضع في بلاد الشام كان جيدا ويتمتع بصورة

Digitized by Birzeit University Library

اقتصادية مستقرة نسبيا،

وفي العصر العباسي عمل خلفاء الدولة العباسية (١٩) على عدم ارهاق المزارعين ووضعوا قواعد ثابتة لمقدار الخراج حسب نوع المحصول وجودة الارض وراعوا تخفيض الضرائب في بعض الاحيان حيث وضعوا ثلاث طرق لجباية الخراج وهي الطريقة الاولى طريقة المحاسبة وهي تحصيل الضريبة للخراج اما بصورة نقدية او بصورة عينية حسب رغبة الفلاح اما الثانية فهي ضريبة نوعية منفردة تؤخذ على المحصول وكميته اما الطريقة الثالثة فهي تتم حسب اتفاقيات معينة بين الحكومة والفلاحين، وبذلك اختلف العهد العباسي عن سابقه العهد الاموي بعدم ارهاق الفلاحين واثقال الضرائب عليهم. وليس ادل على الاوضاع الاقتصادية في العهد العباسي من ان دخل الدولة العباسية في عهد هارون الرشيد قد بلغ ٢٧٢ مليون درهم بالاضافة الى اربعة ملايين ونصف من الدنانير في السنة.

وقد بلغت موارد بيت المال في عهد الخليفة العباسي المأمون حسب تقديرات عمر بن مطرف الكاتب احد العاملين على الخراج في ذلك الوقت ومن جند فلسطين فقط ما يقارب ثلاث مئة وعشرين الف دينار نقدا ومن جميع اجناد الشام الكمية العينية التي بلغت من الزبيب ثلاث الف رطل.

ومن الجداول يمكن معرفة وضع فلسطين الاقتصادي في العهد العباسي، فمثلا في عهد الخليفة المأمون ساهمت فلسطين بما نسبته ٣٥٪ من خراج بلاد الشام وفي عهد المعتصم ساهمت بـ ٢٧٪

اذن ان الارض الفلسطينية هي ارض عربية منذ فجر التاريخ كانت ولاتزال من اخصب الاراضي الزراعية في العالم وذات موقع جغرافي جعلها اهتمام المستعمرين منذ قدم الزمان، ولم تكن يوما كما ادعى اعدازنا هي ارض بلا شعب لان الشعب العربي زرعها واستغلها وبذل فيها الغالي والرخيص وسطر مجده وتاريخه عليها بدماء شهدائه الابرار. فكانت ارض اجداده وستبقى له ولابنائه حتى يرث الله الارض ومن عليها وان شاقت بأهلها بعض الفترات الا انها ستكون مؤقتة وعابرة،

مقدار اموال الخراج الى بيت المال من بلاد الشام في عهد المأمون

اسم الجند	مقدار الجباية بالدرهم	النسبة المئوية
جند قنسرين	٤٠٠,٠٠٠	٣٣٪
جند دمشق	٤٢٠,٠٠٠	٣٤٪
جند الاردن	٩٧,٠٠٠	٧٪
جند فلسطين	٣١٠,٠٠٠	٢٦٪
مجموع بلاد الشام	١٢٢٧,٠٠٠	١٠٠٪

جدول يوضح الوضع الاقتصادي لفلسطين في العهد العباسي من خلال مساهمته في المجموع الكلي للخراج من بلاد الشام.

المصدر:-

* مقدمة ابن خلدون ص ١٥٦، ١٥٨
* تاريخ الاسلام السياسي ص ٢١٤

مقدار اموال الخراج الى بيت المال من بلاد الشام في عهد المعتصم

اسم الجند	مقدار الجباية بالدرهم	النسبة المئوية
جند قنسرين	٣٦٠,٠٠٠	٣٣٪
جند حمص	٢١٨,٠٠٠	٢٠٪
جند دمشق	١١٠,٠٠٠	١٠٪
جند الاردن	١٠٩,٠٠٠	١٠٪
جند فلسطين	٢٩٥,٠٠٠	٢٧٪
مجموع بلاد الشام	١٠٩٢,٠٠٠	١٠٠٪

* المصدر: تاريخ الاسلام السياسي: الجزء الثاني تأليف حسن ابراهيم حسن ص ٢١٦

قائمة بأسماء المراجع

* المصدر الاساسي الذي اعتمدت عليه المقدمة هو كتاب تاريخ فلسطين في العهد العثماني - اجيل توما،

١- عمر فروخ + تراريخ صدر الاسلام والدولة الاموية - دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٢ ص ١٠٢.

٢- د. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين - الجزء الثاني

ترجمة الدكتور كمال اليازجي - دار الثقافة

Digitized by Birzeit University Library

بيروت بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطبع والنشر المساهمة. سنة ١٩٥٩ ص ٣١.

* عمر فروخ * تاريخ صدر الاسلام والدولة الاموية، دار العلم للملايين - بيروت سنة ١٩٧٢ ص ١٠٥

٢- سليم عرفات المبيض، غزة وقطاعها، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٨٧م ص ٢١٢ وانظر كذلك الخريطة رقم ٣٠.

* تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين. مرجع سبق ذكره، ص ٢٧٤، عبد الرحمن محمد ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون - الطبعة الخامسة.

دار القلم - بيروت سنة ١٩٨٤م وهذا المفكر يعبر عن الفكر الاقتصادي والاجتماعي السائد في تلك المرحلة. ص ٣٨٢.

٥- المصدر السابق. ص ٤٠٦ فصل في ان الخدمة ليست المعاش الطبيعي

٦- د.عبد الخميم مبارك. قراءات في نظرية التاريخ الاقتصادي - كلية التجارة جامعة الاسكندرية. الناشر. مؤسسة شباب الجامعة - جمهورية مصر العربية سنة ١٩٨١م ص ٣٧، كذلك انظر: مجلة قضايا. العدد الخامس د.شريف كنعانه ص ٨.

٧- د.فيليب حتي، تاريخ العرب (مطول) الجزء الثاني - الطبعة الرابعة ١٩٦٥ - دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع. ص ٧٨٨،٧٨٩.

٨- د.عبد الخميم مبارك. قراءات في نظرية التاريخ الاقتصادي. مرجع سبق ذكره ص ٢٤.

٩- ابراهيم سكيك - غزة عبر التاريخ - الجزء الثاني - الناشر - الهيئة الخيرية - غزة ص ٢٤ - سليم المبيض، غزة وقطاعها - سبق ذكره ص ١٧٢.

١٠- د.فيليب حتي - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين مرجع سابق ص ٢٤.

١١- نفس المصدر السابق ص ٢٥٦.

١٢- سليم عرفات المبيض. غزة وقطاعها مرجع سابق ص (١٨٩).

١٣- د.فيليب حتي - تاريخ سورية ولبنان وفلسطين مرجع سابق ص ٢١٧.

١٤- نفس المصدر السابق ص ١٦٥.

١٥- انظر فيليب حتي - تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين مرجع سابق ص ٢٢٥. وكذلك سليم المبيض غزة وقطاعها مرجع سابق ص ١٩١.

١٦- سليم المبيض - غزة وقطاعها - مرجع سابق ص ١٩٠، تاريخ سوريا. فيليب حتي ص ٢٢٧.

١٧- نفس المصدر السابق ص ١٩١.

١٨- علي ابراهيم حسن، تاريخ الدولة العربية، ص ٣٥١.

١٩- حسن ابراهيم حسن. تاريخ الاسلام السياسي - الجزء الثاني ص ٢١٨، ٢٢٣.

تنويه واعتذار

نقدم اسفنا واعتذارنا الى الدكتور ابراهيم العلم عن الخطأ الذي وقع في مقالته عن رواية «خرافية سرايا بنت الغول» لأميل حبيبي، حيث كان العنوان خطأ «سيرة ذاتية» والصحيح هو «سيرة روائية»، كما نتوه الى انه سقط سهوا بعض الجمل من احدى الفقرات. لذا نعيد نشر الفقرة التي سقطت بخط مميز.

مع الاعتذار الشديد للدكتور ابراهيم العلم، وكذلك للقراء الاعزاء

ومن هنا يمكن القول ان الكاتب لا يتخلى عن رمز أساس اعتمده في مستهل الرواية بل يتابعه المرة تلو الاخرى حتى يجلوه ويستوفي دلالته. ومن ذلك ايضا رمز العصا ذات الاطواق الثلاثة، ولعله اشار بها الى المفاصل الثلاثة في تاريخ القضية الفلسطينية حين كان الشعب يملك الوطن بحرا وجبالا ثم حين شرد عنه وتباينت الآراء حول السبل التي ينبغي أن تطرق لاستعادته. وربما أشار الطوق الثالث الى احكام قبضة المحتل ورفضه الحوار مع ابناء فلسطين. ومن ذلك ايضا رمز (الكرمل) الذي تخلل مواقف الرواية كلها، فقد رمز به الكاتب الى الماضي تارة والى الوطن المغدور طورا وظل يقلب الحديث فيه حتى انطق اشجاره في نهاية المطاف كما فعل غسان كنفاني حين شخص الصحراء في رواية (ما تبقى لكم).

قيامة

لماجد ابو غوش

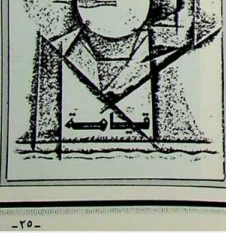

صدر مؤخرا ديوان شعر جديد للشاعر الفلسطيني ماجد ابو غوش حيث يقع الديوان في ٧٠ صفحة من القطع الصغير ويضم ١٧ قصيدة، صمم الغلاف واللوحات الداخلية الفنان حسام ناصر.

الجدير بالذكر ان الشاعر ماجد صدرت له ثلاثة دواوين شعرية وهي «صباح الوطن» دار الكاتب ١٩٨٤ و «قالت لي الارض» اتحاد الكتاب الفلسطينيين ١٩٨٩ و «بقداد» شباط ١٩٩٩.

ويندي المؤلف اصدار ديوان الجديد تحت الطبع بعنوان «عمواس».

Digitized by Birzeit University Library

عرض لكتاب برهان الدين دلو

«مساهمة في اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي»

«دار الفارابي، بيروت، سنة ١٩٨٥»

نحو منهجية تقدمية في اعادة كتابة التاريخ الاسلامي

جبريل محمد

تشكل اعادة كتابة التاريخ العربي الاسلامي ضمن رؤية تقدمية ثورية، او ضمن رؤية نقدية عصرية، مخاطرة غير مضمونة العواقب، في مرحلة تصاعد المد السلفي، وذلك ليس لان هذه الرؤية تفتقر الى الادوات المنهجية العلمية، او لان المصادر التي اطلعتنا على هذا التاريخ « على علاتها » هي نادرة، بل لان المحاولة بذاتها تحمل مجازفة بالحياة الشخصية للمساهم في مثل هذا العمل، ولعل ما يجري في لبنان وفي ظل وحي الحرب الاهلية التي اريد لها ان تكون حربا طائفية، مع انها لم تكن كليا كذلك، ما يثبت هذا الكلام، فحيث وطن المليشيات المتعاركة يوما والمتحالفة في يوم آخر حيث ممالك الطوائف والمتشبثين بالماضي، كي لا ينفي الحاضر وجودهم الى غير رجعة، والمتهيبين من منطق المستقبل، يعيش المفكر الثوري تحت رحمة كاتم الصوت، والسيارة المفخخة، الامر الذي يجعل الكتابة تحمل في جنباتها منطق التحدي، وتكتسب السمة الثورية في الواقع المعاش، لا في التنظير اللفظي.

فضحايا الاقدام الجريء على مثل هذه المعالجات لازال دمها طريا، ولازالت ذكراها خضراء في قلوب التقدميين، فلو لم يمزق شيخ المفكرين العرب (الشهيد حسين مروة)، ستار الجبرية والتعتيم على تراث الحركات الشعبية في عصور الاسلام المختلفة، ولو لم يكشف ستر التيارات المتسربلة بالدين، كيف لا تريد لبنان الا ممزقا، لما انطلقت رصاصات الغدر الظلامية المتشبثة بقبض الماضي وقضيضه، لتوقف هذا الدماغ عن تشريح هذا الماضي وتبيان الصالح فيه من الطالح، لقد كان مسدسا مظلما كسواد وجوههم ودخانهم الذي ملأ سماء بيروت، يريدون به اطفاء تشاريق الفجر الاولى، ولو لم تكن الكتابة مهمة ثورية لدى الفيلسوف الشاب (مهدي عامل)، تقرأ الواقع تستجلي تطوره، وترسم الطريق الى آفاقه الرحبة، مبددة غبار الذرائعة الطائفية، وكاشفا اسرار لعبتها في لبنان، لما اتبعه الظلاميون لمعلمة الكبير ليغتي

Digitized by Birzeit University Library

شهيدا، لانه اكتشف ان الطائفية علاقة اجتماعية خرجت من التاريخ، وهي ليست مفروضة عليه، الا بمقدار وجود قوة مادية تفرضها، لذا كان من الافضل ان يكتم هذا الصوت والا فسترتفع اصوات اخرى.

فالكتابة في مثل هذه الموضوعات تأخذ شكل العملية الاستشهادية، والمواجهة الشاملة مع كاتم الصوت وكاتم العقل، لذا فان كتابنا الذي اخترناه، يعد محاولة جريئة وتقدمية، تستلهم الماضي الشعبي التقدمي، ويرد ايضا على تتار التاريخ المعاصر في الارض العربية عبر الحجة والبرهان التاريخي القائم من بطون الكتب التي طالما تغنوا بقيمتها، فهو محاولة لاعادة صياغة ماضينا كي نفكر فيه بعقولنا، لا كي نكتب فيه القصائد العصماء بعواطفنا، هي محاولة تضع تاريخنا ضمن صيرورته وتطوره، ولا تحاول اعادة انتاجه على شكله القديم، كي ننتج نتوءا في التاريخ العربي وحركته لا يصلح ان يكون الا اعادة لمنهج التجربة والخطأ الذي مارسته برجوازيتنا العربية. فهو زاد يجعلنا نمضي للامام، لا حبل يشدنا للوراء، هي كتابة لتاريخ الفعلة والأكارين والفلاحين والعبيد، لا تاريخ ترث الامراء والوزراء والبطانة والحاشية والجواري والقيان.

وتأتي الاهمية ايضا لان حمى الادعاء الغربي «الارهاب الاصولي»، قد بلغت اوجها، كي تعطيها دعاية مقصورة ومبرمجة من جانب الغرب، حتى توجد الالتفاف شعبيا ينفس مأساته ومعضلته في الغيب، ويعزل نفسه عما يحيطه من استغلال وقمع، ليبقى منفعلا في التاريخ وليس فاعلا فيه، فهو كتاب غير تلك المناهج المدرسية التي تعلمناها، فعبر حوالي ٤٠٠ صفحة من القطع الكبير، يقدم برهان الدين دلو منهاجية، باختصار، يمكن لكل فصل او باب فيه ان يحتاج الى مجلدات اذا ما فصل، ويستند هذا الكتاب الى ١٩٥ مرجعا ومصدرا تاريخيا منها (١٣٤) مصدرا اساسيا من امهات كتب التاريخ العربي للمسعودي والبلاذري وابن خلدون وابن خلكان وغيرهم، ويقارن الكاتب الروايات ببعضها ببعض فان اقتنع بواحدة غلبها او اختلط عليه الامر ذكر الروايتين معا.

كما انه يقيم هذه الكتابات فهو يقول: «ان الغالب على المؤلفات التاريخية للمؤرخين العرب - الاسلاميين لها طابع التاريخ العام للاحداث ... وان وراء ذلك اسبابا طبقية وايديولوجية موضوعية كانت تتحكم في هذه المواقف، فلا يصح ان نتجاهل ان كثيرا منهم كان ينطلق في كتابة التاريخ من مواقع السلطة القائمة اما طمعا او خوفا او تأثرا بالتضليلات الايديولوجية الرسمية، او اندفاعا تلقائيا بحكم الانتماء الطبقي {الكتاب ص ١٢}.

ويبين لنا هنا ان التاريخ المكتوب ليس كل التاريخ الحقيقي، بل جزء منه اقتصر على نشاط الاعيان الملوك ... الخ وتسجيل للاحداث العامة، وفي اطار المستوى المعرفي المحصل آنذاك. اما هدفه ككاتب من وراء هذا الكتاب فهو «تربية الناشئة بروح العلم والديمقراطية والتقدم، وتكون المواطن الواعي الثوري الصامد والملتزم جانب الجماهيره {الكتاب ص ٥}. لهذا جاءت منهجيته بسيطة ولغته سهلة بلا تقعر، ولا استخدام للمصطلحات المجردة الكبيرة، فهو كتاب شعبي سهل ويمكن ان يقدم في اي مدرسة ثانوية. كما انه لا ينظر الى التاريخ والتراث نظرة عدمية مقطوعة الجذور بل يؤكد ان كتابه «التاريخ العربي - الاسلامي من وجهة نظر موضوعية تقدمية هي ايضا احدى جبهات الكفاح في سبيل هدم جميع البنى الفوقية للمجتمع القديم، ومن جسور التواصل بين العناصر التقدمية والديمقراطية من تراثنا القديم - وهي العناصر التي مازالت تحتفظ بضرورة بقائها - وبين العناصر التقدمية والديمقراطية من ثقافتنا العصرية» (الكتاب ص ٦).

وهذا الهدف طالما سعت اليه اتجاهات فكرية عربية مختلفة، الا ان هذه الاتجاهات ظلت غامضة في تحديد الشكل التقدمي والمضمون التقدمي للتراث، بينما كاتبنا هنا يفصح بجلاء عن غايته ولا يلتوي عليها، لا يدعي الحياد، ولكنه لا يرى في البحث عن الحقائق انحيازا، بل هي الموضوعية عينها فهو كتاب حول التاريخ «الذي لا يكتفي بمعرفة كيف حدثت الامور، بل يريد معرفة لماذا حدثت الامور على نحو معين وليس على نحو آخر» (الكتاب ص ٦). فالتاريخ... ليس مجرد صراع بين افكار ومفاهيم وقيم متناقضة، ولا هو صراع ايديولوجيات منفصلة فحسب بل ان الاولتين هما نتيجة صراع واقعي بين مصالح مختلفة يفرضها الوجود الاجتماعي المختلف لطبقات هذه المصالح نفسها، والتي تمور في احيان كثيرة معبرة عن نفسها كصراع بين افكار ومفاهيم مختلفة. وكما يقال فالتاريخ هو الصح الوحيد في هذا العالم.

منهجية الكتاب

ضمن رؤية الكاتب الماركسية، اعتمد على منهجية مادية تاريخية تحاول ان تولد الحاضر من تفاعلات الماضي وتطوره، عبر رصد وتحليل مجمل القوى الشعبية التي ساهمت في صنع الاحداث التاريخية، وبالتالي، لم يلجأ الكاتب الى النصية، او التقرير، بقدر ما لجأ الى تحليل النص واستنباط الاحداث والقوى الاجتماعية التي ساهمت في صنعه. وقبل ان يعرض الكاتب وجهة نظره قدم بشكل نقدي ايضا نموذجين للكتابات عن التاريخ العربي الاسلامي، النموذج المثالي مع التمايزات

Digitized by Birzeit University Library

التي تتكون داخله والذي قدم عليه امثلة كالبلاذري والطبري محاولا شرح الظروف التي عاشوها والتي اثرت في كتاباتهم، حيث كتب البلاذري «انساب الاشراف» اما الطبري فكتب «تاريخ الرسل والملوك» ثم قدم اتجاها واقعيا في كتابة التاريخ حيث مثل عليه كل من العلامة «ابن خلدون» في مقدمته، والمقريزي، الذي قدما تعليلا موضوعيا نسبيا للاحداث التاريخية، حيث اعتبر ابن خلدون «قوة العصبية» عاملا محركا للتاريخ، بينما حدد المقريزي تسببيات للتاريخ واحداثه من الافات الطبيعية الى الاسباب السياسية والاجتماعية - الاقتصادية، الا ان الكاتب، لم يغالي في توصيف موضوعية ابن خلدون والمقريزي بل صنفهما ضمن الاطار «المثالي الموضوعي» ووضعها ضمن الاطار المعرفي لمستوى تطور المجتمعات التي عاشوا بين ظهرانيها.

وبعد ان قدم هذه النماذج وفسرها وعلق عليها قدم كتابه كنموذج منهجي في قراءة التاريخ العربي الاسلامي، فحاول ان يستعرض ويحلل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية للعرب قبل الاسلام، والتطورات التي حصلت على معيشة هؤلاء العرب واشكال الملكية الاقتصادية والنشاط البشري الانتاجي والعلاقات السياسية منتهيا بالايديولوجيا وتطورها، والتي فرضت في النهاية بروز الحنيفية التوحيدية كعقيدة بدأت تشق طريقها في الجزيرة العربية، حيث كان لها اتباعها في هذه البقعة، وهنا يظهر لنا ان الكاتب يريد ان يؤكد ان تطور الحنيفية التوحيدية، هو نتاج عوامل تاريخية استطاع النبي محمد ان يكون ممثلها الاقدر. وقد لخص الكاتب فصله هذا بقوله «ان نمو الحركة التجارية وقيام الاسواق الموسمية الكبرى، وتوحيد اللهجات في لهجة مشتركة متميزة - (لهجة قريش)، اصبحت لغة التعبير الفني ولغة التعامل المشترك بين مختلف القبائل، اثناء انعقاد المواسم العامة التجارية والدينية والادبية - وتوظيف الشعر كأداة اعلامية في خدمة التوجه الوحدوي، وتشكيل الاحلاف بين القبائل العربية لتوحيد صفوفها سياسيا، ونشوء الديانة الحنيفية التوحيدية، هذه جميعا قد مهدت لظهور الاسلام (الكتاب ص ٦٥).

الا ان الكاتب يعتريه الضعف والتردد في رصد وتحليل السيرة النبوية وسيرة الخلفاء الراشدين، غير حروب الردة، وبيعة الخلافة الاولى، والثورة على عثمان، وما تلاها من حروب، فهو وبشكل مختصر ومركز يعطينا لمحة سريعة جدا الامر الذي يعتبر نقطة ضعف في الكتاب، مما يدفعني للاستنتاج انه لا يريد ان يفتح كواتم الصوت عليه، اذا ما هو قيم هذه الفترة بشكل موضوعي يستند للمادية التاريخية.

ورغم ذلك فالعهد النبوي قدم بذرة اولى للدولة العربية الاسلامية، الا انه لم يقدم كل شيء جاهزا ليحل مشكلات المستقبل وابلغ دليل على ذلك، هو ان هذا العهد لم يحل بشكل دستوري او عرفي او نصي مسألة الخلافة بعد محمد، مما خلق خلافات بين المهاجرين والانصار، بين القرشي من المهاجرين وغير القرشي منهم وظلت هذه المسألة موضوع جدال وخلاف، وعلى اساسها تكونت الفرق والاحزاب، انها السلطة السياسية، هدف هذه الاحزاب التي عبرت عن تكوينات اجتماعية اقتصادية، رغم تغلفها بالايديولوجيا الدينية. فمسألة السلطة وصلت الى الحل بعد عثمان بقوة السيف، فقد حسمت قوانين التطور التاريخي وتوسع الدولة امر السلطة، واثبتت ان الموضوعي المتحرك والديناميكي اقوى من النص الجامد والاستاتيكي.

عمد الكاتب في هذا الفصل كما في الفصول الاخرى الى دراسة واقع ما قبل الاسلام ضمن نفس المنهجية التي قدمها للفصول الاخرى، فهي تركز على السياسة العامة لهذه الفترة وعلى النشاط البشري الانتاجي والخدماتي فيها، اضافة، لتركيب الطبقي الاجتماعي، واعطى لمحة سريعة عن العلاقات بين الطبقات، ثم حاول تحديد الملامح الاولى لتطور الايديولوجيا في هذه الفترة.

الا انه خلط بين نقطة التحول وبدايات ظهور الاسلام كعنوان لمرحلة تاريخية جديدة يعيشها العرب، فهو لم يحدد عند هذه التخوم بداية مرحلة جديدة وهذا مأخذ عليه، وربما اراد الكاتب ان يقول ان التوحيدية كايديولوجيا لم تغير كثيرا في البنية الاقتصادية للمجتمع العربي، اي انها لم تنهي العلاقات الانتاجية السائدة كلها، بل حاولت ان تصلح هذه العلاقات، وتعدل فيها، ورغم ذلك فان هذا الامر لا يمكن ان يعطي مبررا للقفز عن هذه المرحلة وعدم تفصيلها مهما كان، لان هذه الفترة كانت نقطة التحول الكبرى في مجتمع الجزيرة العربية وعلى اساسها انبثت افكار ومفاهيم ومؤسسات وانظمة لازالت تستمد ديمومتها في حياتنا حتى اليوم.

في صلب الكتاب:

نستطيع من خلال منهجية برهان الدين دلو ان نعيد صياغة الكتاب كالتالي:

أ - السياسة العامة التي حكمت كل حقبة تاريخية وتطورها.

ب - النشاط البشري في كل حقبة وتطوره.

جـ - تطور الاوضاع والنظم الاجتماعية والتقسيم الطبقي.

د - الحركات السياسية المعارضة والتي تستند الى الفئات الشعبية وتطورها.

Digitized by Birzeit University Library

ـ الايديولوجيا السائدة في كل حقبة تاريخية.

فبعد ان يناقش الكاتب قضايا الخلاف بعد وفاة الرسول حول الخلافة، يؤكد الكاتب ان قضايا الخلاف عبرت عن صراع كامن تفجر في شكل الصراع على الخلافة، فقد اتخذ الصراع شكلين، شكل داخلي ضمن الايديولوجية الاسلامية بين مهاجرين وانصار، وبين قرشي وغير قرشي من جانب، وشكل خارجي قبل بمبدأ النبوة ولكنه ارادها له بعد محمد الامر الذي اوجد ردة في القبائل المختلفة بعد وفاة النبي. لذا حسمت الايديولوجيا الاسلامية التناقض الداخلي بتوليه ابي بكر، لتتفرغ للمرتدين، وتعيد سلطة يثرب على الجزيرة العربية وكان لها ذلك، اي التناقض الداخلي تأجل لصالح الحرب مع عدو خارجي، وظل هذا مؤجلا في فترة عمر بن الخطاب ايضا، فقد ساهمت الفتوحات الواسعة للشام والعراق، وبلاد فارس، ومصر، عاملا مهما في اخماد حدة التناقض الداخلي هذا، حتى ولي عثمان بن عفان، والذي حذر منه عمر بن الخطاب واوصى بـ وان لا يحمل بني امية وبني ابي معيط على رقاب الناس» (الكتاب ص ٦٩) الا ان عثمان فعل ذلك حيث ولى اقرباءه قيادة الجيوش، وامارة الامصار المفتوحة، وقربهم اليه، وعلى تخوم مرحلة عثمان بن عفان تأثر المسلمين بالنظام الاقتصادي الاجتماعي السائد في الامصار المفتوحة فهو اما اقطاع فارسي او اقطاع رومي، وبالتالي بدأت الدعوة الاسلامية تتحول من جهاد يبغي نشر الدين الجديد اولا وتوسيع رقعة الدولة الاسلامية ثانيا، الى حروب للفتح تهدف الى زيادة ثروة الامراء فقد واثارت اعمال النهب والاستغلال، وما صحبها من خداع وعنف، نقمة الناس ولا سيما رجال الخليفة عمر، الذين كانوا قد عزلوا من مراكز النفوذ والمال، ولاقت هذه النقمة العامة تجاوبا لدى القبائل وخاصة قبائل العراق ... واستحالت النقمة الى فتنة اثارها زعماء الناقمين في الكوفة والبصرة ومصر الذين وفدوا الى المدينة بدعوى الحج، وقد تجاوب معهم اهل المدينة الناقمون، ثم ما لبثت ان نشبت الثورة، وحاصر الثائرون من خلالها بيت عثمان، ثم تسوروا الجدار المحيط به وقتلوه» (الكتاب ص ٧٣). هنا بدأت المعركة على الخلافة، بين من يرى انه احق بها (علي)، وبين من حقق قوة مادية ومكتسب خاف على ضياعه فاراد لنفسه (معاوية). وهنا برز بشكل واضح مفهومان للخلافة يعبران عن توجيهين سياسيين واجتماعيين اقتصاديين، موقف يمثله جمهور المسلمين بأن الخلافة تكليف من الامة وان الامة فوق الخليفة وهو موقف ديمقراطي، وموقف آخر جبري يرى ان الخلافة حق الهي ارادته لنفسها الاريستقراطية الطبقية الجديدة.

وقد انعكس ميزان القوى في خلافة علي التي لم تهدأ يوما حيث عزز الاقطاع قوته امام خطر علي الذي حاول سلب الامتيازات من هذه الارستقراطية، حيث عارض الذين اثروا ولغموا بالاموال خلال حكم عثمان اي مبايعة لعلي، بينما بايع الاخرون عليا، الا ان المئرين امثال طلحة بين عبيد الله والزبير العوام قد خلعوا عليا حينما توجهوا للعراق لانتزاعه من علي والسيطرة عليه الا ان عليا اخضعهم في معركة الجمل، لكن معاوية (الداهية) انتظر حتى ينهك علي في مقاومة الخارجين في العراق، ليقابله في موقعه اخرى تماما كما ابطأ معاوية في دعم عثمان، ليسهل عليه اقتناص الخلافة. فاستغل موقعة صفين، وخديعة التحكيم كي ينتزع منها مكسبا يضعه على قدم المساواة مع علي، ولتصبح الخلافة نفسها بالنسبة لعلي موضع شك ومساومة، الامر الذي اضعف عليا وقوى معاوية، واخرج على (علي) فرقة جديدة رفضت التحكيم، ورأت ان الخلافة في المسلمين هي حق للمسلمين انى كانوا وكيف كانوا، حتى لو كان الخليفة عبدا حبشيا، وقد اعتبر هذا الموقف موقفا جمهوريا ديمقراطيا، انتهى فيه عهد الراشدين «تاركا في الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية ثلاث تكتلات رئيسية هي شيعة علي وحزب الامويين والخوارج» (الكتاب ص ٧٦). وبانتهاء العهد الراشدي نستطيع ان نقول ان الارستقراطية انتصرت وبدأت الدولة العربية الاسلامية تأخذ قسماتها الواضحة والمستندة الى نظام الاقطاع. ليمكننا بعدها ان نتحدث عن نظم ثابتة وعن تراجع للقيم الايديولوجية، لصالح النواميس التي فرضتها حركة الحياة والتاريخ، ولتصبح دولة بني امية اول انتصار للعلاقات الاقطاعية في التاريخ العربي ـ الاسلامي، وهنا يجب ان نفرق كما قلنا بين الحكم الاخلاقي المتعاطف مع علي، وبين حركة تطور المجتمع نفسه والذي فرض انتصار العلاقات الجديدة، الاكثر تطورا وانسجاما مع اتساع الدولة واتساع نشاطها وتقدم الحياة الاجتماعية فيها من البداوة الى الاستقرار في الامصار المفتوحة.

أ ـ حول السياسة العامة للدولة العربية الاسلامية:

بانتصار العلاقات الاقطاعية انتقل العرب من اريستقراطية قائمة على الرق الى اريستقراطية اقطاعية، وقد قامت دعائم الدولة الاولة على اقتصاد متين وجيش قوي، وسخر الاسلام لتحقيق مصالح الطبقة الجديدة، وانتهى عهد الشورى ليأخذ مكانه عهد الوراثة، واعتمدت الدولة الاموية على العرب، بينما رأت في الموالي منزله

Digitized by Birzeit University Library

ادنى، واهتمت الاريستقراطية بجمع الاموال عبر الفتوحات وفرض الجزية والخراج، الامر الذي ولد التناقض الكبير بين ما مارسته السياسة الاموية وبين ابسط تعاليم الدين (لا جزية على مسلم) الا ان الامويين كانوا يفرضونها حتى على من اسلم من الاقطار المفتوحة، كذلك فان جمعهم للاحلاف العربية تحت مظلتهم وتجاهلهم لغير العرب قد خلق تناقضا بين العروبة والاسلام واوجد الحقد في صدور الموالي، وعلى هذا الاساس انتبه العباسيون لاخطاء بني امية في تغليب العرب على الموالي، فقد استعان العباسيون بالموالي وغير العرب وعقدوا الاحلاف معهم ومنوهم بالمشاركة في السلطة، اما على الصعيد الاقتصادي فان السياسة العامة لم تختلف كثيرا، فقد ظل الخراج والجزية والضرائب لا بل فرضت ضرائب جديدة في عهد العباسيين، رغم ان العباسيين قد خلعوا الجزية عمن اسلم من الموالي، كي يكسبوا تأييدهم، فقد تحالفت الاريستقراطية العربية من بني العباس مع الارستقراطية الفارسية ليسهل لها الامساك بزمام امور الدولة المترامية الاطراف، وحيثما كانت مصلحة العباسيين التخلص من الموالي كانوا يقدمون على اعمال السفح والسحل بهم كما حدث مع قائد الثورة العباسية الحقيقي وهو «ابو مسلم الخراساني»، او كما بينته نكبة البرامكة، فقد حكم العباسيون الموالي من خلال اريستقراطية الموالي نفسها واعفاها ذلك من المواجهة المباشرة معها. فالثورة العباسية لم تكن عملية تغيير شاملة في المجتمع الاسلامي، بل لم تتعدى حدود الاستبدال الطبقي، والعباسيون لم يخونوا اهداف الثورة كما يرى برهان الدين دلو، لان الخوارج والشيعة وغيرهم ممن ثاروا على الامويين وتحالف معهم العلويون، لم يصلوا الى السلطة مع العلويين، لا بل ان السفاح قضى عليهم حال انتصاره، ليستتب له ولبني العباس الملك، فقد انتصر العباسيون لانهم ارادوا ترسيخ الاقطاع، وعبروا عن تكوين اجتماعي جديد رأى ان حكم بني امية بالاساليب القديمة لم يعد ناجعا وقادرا على ضبط المجتمع تحت سلطته، ولهذا تحالف العباسيون مع الموالي، كيما يترسخ الاقطاع باجراء التعديلات اللازمة على نظامه لا اكثر. ففي ظل العباسيين ضعف الطابع العربي للدولة، وظهرت الدولة العباسية، كدولة للعرب والموالي، رغم ان الممسكين بزمام الامور عدا الخليفة كانوا اما من الفرس، او الاتراك، الذين تنفذوا في السلطة بعد تولي المعتصم لها، وتعيينه «للافشين» قائدا للجيش العثماني. حتى لم يعد الخليفة العباسي اكثر من شبح ورمز، بينما صارت السلطة في ايدي الموالي من البويهيين الفرس، والسلاجقة الاتراك.

من هنا نرى ان ميلاد الاقطاع وان ظهر في اواخر حكم عثمان الا ان بروزه وميلاده كان في عهد معاوية والدولة الاموية وترسخ في عهد العباسيين، ووصل الى درجة الانحطاط في فترة تولي الموالي للسلطة الفعلية، لذا لم تكن الدولة العربية التي نشأت في عهد بني امية سوى تأسيسا للدولة الاقطاعية في البلاد الاسلامية والتي استمرت في تطورها عدة قرون في عهد العباسيين والاتراك والتي عاش العرب وغير العرب في ظلها يرزحون تحت كل جنون البطش والاضطهاد، رغم ان هذه الدولة ايضا، قد اعطت انجازات ومكاسب كثيرة، واوجدت تطورات اقتصادية واجتماعية، الا ان محصلتها العامة على المستوى الشعبي كانت مزيدا من الاستغلال.

ب - النشاط البشري والنظام الاقتصادي.

تطور النظام الاقتصادي والنشاط البشري العربي بشكل ملحوظ، بعد سلسلة واسعة من الفتوحات، وسعت رقعة الارض، وتأثرت بنظام الانتاج والادارة في البلدان المفتوحة، لا بل ان اساس التحول الطبقي في المجتمع العربي يعود اساسا الى توسع رقعة الدولة والاطلاع على ونقل الخبرة والانظمة الموجودة في البلدان المفتوحة، اكثر مما كان الامر عبارة عن تحول داخلي لمجتمع القبائل العربية، فاستقرار العرب في البلدان المفتوحة علمهم اساليب الزراعة، هذا اضافة لبراعتهم في التجارة، كما طوروا حرفهم وصناعاتهم الامر الذي يدفعنا للاستنتاج ان النظام الاقتصادي الجديد قد جاء هجينا بين استقرار الزراعة في البلدان المفتوحة، والنشاط التجاري المرافق لها اضافة لمجمل الحرف القائمة، فقد استصلحت اراض جديدة وفتحت بلاد جديدة واسواق جديدة للتجارة، واقيمت القنوات والسدود على الانهر ... الخ، كما نمت المدن مع توسع الحركة التجارية، واصبحت مركز الملاك الكبار هذا اضافة لصناعات متعددة لم تتوقف عن التطور حتى اواخر العصر العباسي الاول. وقد اضيف الى ذلك اصلاحات تنظيمية وادارية عززت من سلطة الدولة، وسهلت نقل الاموال الى خزينة الدولة، حيث اقيمت وعربت الدواوين المختلفة وصكت العملة ... الخ. ونشأت بيروقراطية حاكمة شاركت الخلفاء والامراء والملاكين والتجار في انتزاع الفائض الاجتماعي من الانتاج.

الا ان هذا النشاط البشري لم يكن نشاطا حياديا، يوزع ناتجه بالعدل بين المنتجين، بل استثمر هذا النشاط، لصالح الطبقات المسيطرة، فقد اغتنت الارستقراطية، واوقع العامة، واسست الارستقراطية لنهب العمل الفائض مؤسساتها، وقوانينها وشرطتها وولاتها ...

Digitized by Birzeit University Library

الخ، فالنظام الاقتصادي الذي ساد أثقل العبء الضريبي على الفلاح والصانع، فمصادر بيت المال تعددت وازدادت بقوانين الضرائب المختلفة من الخراج والعشر، والجزية والزكاة والغنيمة والفيء، حتى اصبحت هذه المصادر هي الهدف، فقد اضيفت ضرائب النكاح واجور الضرابين والبيوت ورسوم العرائض وهدايا الاعياد ... الخ. الا ان المصدر الاساسي للدخل كان الخراج والجزية، حيث تراجعت الزكاة وغيرها فقد اخذ بنو أمية «الجزية ممن اسلموا من دفعها بعد اسلامهم، وازدادوا في نسب مقاديرها» (الكتاب، ص ٩٠). ويورد الكاتب سلسلة من مصادر خزينة الدولة العباسية كمصادر قانونية هي الجزية والزكاة والغنائم والخراج والمصادر غير القانونية (الضرائب)، كاخماس المعادن واعشار التجارة والمكوس وضريبة الاسواق والارث والمستغلات والاحداث، حتى الضرائب على الطحين والمواد الغذائية، الا ان اعتماد الدولة العباسية الاساسي ظل على الخراج كمصدر اوفر لخزينة الدولة. فقد خاطب هارون الرشيد سحابة رآها بقوله «اذهبي اني شئت فان خراجك عائد الي».

اما اشكال الملكية فقد تطورت وتوسعت الملكيات الخاصة للارض، وتوسعت الحرف، والتجارة، وتبقى ملكية الارض هي العامل الحاسم في تحديد التمايزات الطبقية المحلية في كل بلد من البلدان المفتوحة، بينما يلعب قادة الجيش وولاة الاقاليم دور النبلاء في اقطاع اوروبا. ويمكن تصنيف ملكيات الاراضي الى: ملكية عامة للدولة وتشمل الصوافي، والملكية الخاصة للافراد وتضم الاراضي التي وزعت على الفاتحين اضافة لاراضي الموات التي لا يملكها احد الا اذا استصلحها، كما كان هناك ملكية للمؤسسات الدينية واخرى مشتركة تدعى (الحمى) وقد تطور الاقطاع في عهد العباسيين وترسخ ليبرز بوضوح ملكيتين هي اقطاع التمليك والتي يتم فيها حق الانتفاع والتصرف واقطاع الاستغلال والذي يحتوي فقط حق الاستغلال، الا ان الغلبة في هذه الفترة كانت للصنف الاول من الاقطاع، الامر الذي عنى تحولا اكبر في العلاقات الاقطاعية وتشديدا اعلى لاستغلال الفلاحين، وانعاشا لتجارة الرقيق الابيض والاسود لتوفير القوة العاملة في هذه الاقطاعات.

ج - هرمية المجتمع العربي - الاسلامي:

في فترة ما قبل الاسلام وفي الفترة الاسلامية الاولى حتى عهد عثمان يمكننا تصور تركيبة اجتماعية تعبر عن ارستقراطية تجارية وصناع احرار، ومزارعين اضافة الى طبقة واسعة من الرقيق المستخدم في التجارة والصناعة والرعي، الا ان حركة التحول بعد الاسلام، قد مالت الى الاستقرار، وخلق ارستقراطية جديدة الى جانب ارستقراطية التجار، هي ارستقراطية الملاك الكبار وقادة الجيش الذين عقدت لهم الوية الفتح، فقد تضخمت الارستقراطية عبر اضافة جديدة لها من قادة الجيوش الذين اقطعوا الاقطاعات المختلفة اضافة للامراء والولاة والتجار، بينما اضيف الى الفلاحين - وكانوا قبل الاسلام قلائل - كتلة ضخمة من فلاحي الامصار المفتوحة، كما تضم الصناع واصحاب الحرف، وبدأت انوية البيروقراطية - تنسج عشها، من عهد عمر، حينما اوجد الدواوين، الا ان هذه البذور نمت واتسعت باتساع الفتوح في عهد بني امية، وترسخت واضحت الطابع الغالب على الدولة، فقد انقسم المجتمع الاموي الى ارستقراطية اقطاعية بيدها السلطة والنفوذ والى فلاحين يئنون من الاستغلال ويتذمرون من ثقل الضرائب، والى العوام من الصناع والباعة الصغار والحرفيين والعمال هذا اضافة الى الرق والعبيد من اسرى الحرب والذين كانوا هم ممتلكون. الا ان هذا التقسيم يدعونا للتبصر فيه، فالارستقراطية لم تكن كلا متجانسا فامراء الجيش والولاة لم يكونوا ضمن نفس مستوى الخلفاء والعائلة المالكة بل ادنى درجة في الملكية والسلطة، لذا مثل هؤلاء دور النبلاء في رأيي، كذلك فان المجتمع الاموي كان منقسما عرقيا بين العرب والموالي، وعلى هذا الاساس اتخذ الصراع ضمن الدولة الاموية شكلين شكل طبقي سافر هو حركة الفقراء ضد الارستقراطية، وشكل قومي يستند في النهاية، الى غبن طبقي قاده الموالي من الفرس ضد الدولة. ولا نعدم هنا مجالات التداخل والتمفصل بين الشكلين - بل انهما يكادا يندمجان معا في شكل واحد، سيما ان الموالي لم يطالبون الانفصال عن الدولة، بل تحقيق حقوقهم فيها.

الا ان هذه الهرمية تمايزت اكثر في عهد بني العباس فاضافة للارستقراطية التي بدت واضحة تماما ظهر لدينا ملاك صغار للارض، تمايزوا ايضا وتدرجوا، اضافة الى ان فقراء الفلاحين اصبحوا اقرب للصناع والعوام من الفعلة والاكارين واصحاب البيوعات الصغيرة، حيث بدا واضحا ان المجتمع العباسي ينقسم الى تشكيلين اجتماعيين كبيرين هما العامة (الفلاحون، الصناع، الفعلة ... الخ) والخاصة وهي الارستقراطية العباسية وارستقراطية الموالي اضافة لامراء الولايات وقادة الجيوش الذين شكلوا جهاز الدولة البيروقراطي ... الخ، كما ضعف التشكيل الثالث وهو العبيد رغم احتفاظه بالوجود خاصة في المناطق الزراعية.

ورغم ذلك فقد انقلب التشكيل العرقي

Digitized by Birzeit University Library

بالعكس في عهد بني العباس، فاصبح العرب في البداية على قدم مساواة مع الموالي، ثم سيطر الموالي، ولم يعد بالامكان الحديث هنا عن انقسام عرقي، بل عن تسلط فئة غير عربية على السلطة، تقمع جماهير العرب والموالي معا وتصطرع فيما بينها على النفوذ الامر الذي كسر الدولة وقسمها وجعلها نهبا في نهاية الامر.

لقد ولد هذا الانقسام الطبقي حالة من الصراع بين طبقات المجتمع فبين جشع الارستقراطية للمال، ودفاع العامة والفقراء عن خبز يومهم اشتد الصراع ليأخذ اشكاله المتعددة، وايديولوجياته المختلفة، وقامت حركات شعبية واسعة وكبيرة هددت اركان خلافة بني امية وقوضتها في النهاية ثم استعادت هذه الحركات بفعل قانونية الصراع الطبقي الموضوعية فعاليتها في عهد بني العباس باشكال جديدة وايديولوجيات جديدة، فتتت الخلافة ومزقت هيبتها وسيطرت على امصار واسعة، الا انها جميعا انتهت الى فشل في تحقيق برامجها، سواء بسبب انقساماتها، او بسبب الهجوم الخارجي من السلطة عليها، او بسبب بنيتها الداخلية التي اعتمدت النخبة اكثر مما اعتمدت «هوج العامة».

د - الحركات الشعبية:

تطورت على خلفية الصراع الطبقي حركات شعبية متذمرة من حكم بني امية، وبني العباس، حيث نظم خطها، تطور تاريخي انطلق من العفوية التي اطاحت بعثمان واستمرت تكتسب عملية التنظيم تدريجيا حتى وصلت ارقى درجاته الممكنة في ظل الاسماعيلية. اما قيادات هذه الحركات فلم تكن تعتمد على عرق واحد بل من اعراق مختلفة عربية وفارسية وروبية ... الخ الا انها نبعت من اوساط القاعدة الشعبية المتذمرة، ويمكننا هنا ان نرصد هذه الحركات باختصار شديد للتعرف عليها:

أ - الخوارج: جماعة رفضت خديعة التحكيم في معركة صفين، لذا خلعت عليا ومعاوية معا واظهرت فتوى جمهورية ديمقراطية بان المسلمين هم اولى بانتخاب الخليفة دون تحديد لعرق هذا الخليفة - وقد انقسمت الى اثني عشر فرقة الا ان اهمها كان الازارقة، وقد حارب الخوارج بني امية في العراق والحجاز وغيرها، وتحالفوا مع عبد الله بن الزبير، الا ان نهايتهم كانت على يد الحجاج بن يوسف الثقفي.

ب - الشيعة: نشأ التشيع مع بروز مشكلة الخلافة الا انه استشرى بعد مقتل علي، ويرى الشيعة ان عليا احق بالخلافة التي اعتبروها حق الهي لعلي وآلة بعكس الخوارج)، كما آمنوا بعصمة الخليفة، قاتل الشيعة حكم الامويين حتى اعمل يزيد فيهم ذبحا في كربلاء، واستمرت في ثورة المختار الثقفي في الكوفة، وزيد بن علي الذي قتل وتحول الشيعة الى العمل السري وانقسموا الى فرق مختلفة، اصبح اقواها العلويون الذين اسسوا لملك بني العباس.

ج - ثورات الموالي: كانت هذه الثورات ردة فعل على الغبن الذي لحق بالموالي ايام حكم بني امية، حيث فرض بنو امية عليهم الجزية رغم اسلامهم، الا ان الموالي لم يبرزوا قياداتهم السياسية المستقلة، بل اشتركوا في كافة الاحزاب المناوئة للحكم من الخوارج وحتى الشعوبيين.

د - انتفاضة المدينة وثورة ابن الزبير: حاولت المدينة المنورة بعد ان فقدت مركزها السنوي ان تستعيده، فنادت بخلع يزيد بن معاوية الا انها هزمت على يد مسلم بن عقبة المري. اما ابن الزبير فقد تابعه جيش بني امية الذي سار الى مكة، ليهزمه، لكن ابن الزبير استمر في المقاومة واعلن نفسه خليفة وبويع من اهل الحجاز، لكن ابن الزبير لم يكن اكثر من طامع بالسلطة يريدها كي يزيد من ثرائه لا اكثر، وقد انهى حركته الحجاج بن يوسف الثقفي بعد ان دمر الكعبة، وعلق عبد الله بن الزبير على استارها.

هـ - انتفاضات في آسيا الوسطى: قام هذه الانتفاضات عبد الرحمن الاشعث والحارث بن سريج الذين حاولوا ان يستقلوا بممالكهم في آسيا الوسطى التي يسكنها الموالي وقد استمرت هذه الانتفاضات سنين عديدة انهكت الدولة، واوجدت البذرة كي يكون الموالي جيش الثورة العباسية.

و - انتفاضات العبيد: ثار العبيد في كل مكان ضد ظلم بني امية حتى في دمشق نفسها. وقد حرر العبيد سجناء كثيرون في انتفاضتهم الا انها انتهت بالقوة.

ز - الحركة الشعوبية: جاءت الحركة كرد فعل على التمييز بين العرب والموالي سياسيا واقتصاديا، الا انها افرغت من محتواها بفعل الثورة العباسية: بعد تسليم الشيعة مقاليد الامامة لابن عباس، احسن هذا استغلال الاسرار التي اعطيت له، واظهر مهارة في التنظيم الحزبي والتدرج المراتبي من الامامة الى الدعاة والنقباء، وقد حالف بنو العباس الموالي في خراسان ومرو واستخدموهم في ايصالهم للملك حتى اذا ما وصلوا سفحهم ابو العباس وغيره. ليميز الاستبدال الطبقي والترسخ الاقطاعي العباسي الذي ولد ثورات جديدة انهت حكمه على يد المغول سنة ١٢٥٨ميلادية. ويمكننا هنا ان نعرض ايضا وبشكل سريع الثورات الشعبية التي قامت ضد حكم بني العباس:

أ - الانتفاضات الفلاحية: اهمها انتفاضة سنباذ في خراسان مستغلة مقتل ابو مسلم الخراساني حيث دامت سبعين يوما، ثم تلتها انتفاضة (استاذ سيس) في نفس المكان اعمل العباسيون في رقاب قادتها

Digitized by Birzeit University Library

السيف وانتهت ثم انتفاضة خرمية جرجان وازربيجان، واستخدمت الرايات الحمر كشعار لانتفاضتها الا انها قمعت على يد الرشيد. كذلك انتفض الزط بالعراق حيث تحصنوا بالاهوار ودامت اكثر من عشر سنوات حتى قمعها المعتصم، ونقلهم الى الحدود التركية حيث اغار عليهم الاتراك وقضوا على من تبقى منهم، وفي مصر انتفض الفلاحون نتيجة ازدياد الاعباء الضريبية عليهم، فقد طردوا جباة الضرائب، وقد اتخذت انتفاضة مصر قيادة قبطية لها، الا ان المعتصم شتت شملها وحرق قراها.

ب - الانتفاضة البابكية: استمرت هذه الانتفاضة عشرين عاما، كانت عميقة الجذور ملتصقة بالعوام والعبيد مزهوا جيوش الخلافة في اكثر من موقعة، انتشرت في ازربيجان وارمينيا الشرقية وشمال غرب ايران، في البصرة، ضمت حولها كل الحاقدين على السلطة حتى كبار الملاك، الا انهم ككبار ملاك ظلوا مصدر التخريب على الثورة، تماما كقطاع الطرق واللصوص الذين شوهوا صورتها. قادها بابل الخرمي العبد الراعي للجمال، وتحالف الاسماعيلية مع هذه الانتفاضة وطرحت في برنامجها قضايا الارض والمرأة والحريات العامة، وقد سبب هذا لهم كثيرا من التشهير والقذف والتشويه، الامر الذي شكل رأيا عاما مناهضا لهم، هذا اضافة الى انتباه بعض الاقطاعيين لاهمية الثورة وانتمائهم لها بقصد تخريبها من الداخل حتى قضى عليها الافشين بجيوشه الجرارة.

ج - انتفاضة الزنج:

هي ثورة للعبيد ضد الاسياد في منطقة البصرة استمرت حوالي ١٤ عاما، وهزمت جيوش الخلافة في اكثر من موقعة، كما اوقفت تطور الملكية الخاصة العبودية، تزعمها رجل اسمه (بهبود) تأثر بالتيارات السياسية السائدة في عصره وكان اقرب الى تعاليم الخوارج، كان لهم مجلس شوري ينشر الدعاية ويرسم الخطط العسكرية، الا ان النزوح انفسهم بعد ان ثاروا على العبودية اصبحوا شفوفين بامتلاك العبيد الامر الذي اضعفهم وهزمهم العباسيون سنة ٢٧٠.

د - حركة القرامطة:

نشأت من حركة الاسماعيلية السرية، والتي كانت أنذاك حركة فلسفية سياسية سرية وثورية حددت مبادئها بالقضاء على الدولة العباسية ونظامها الاجتماعي الطبقي وتأسيس دولة جديدة مبنية على قواعد المساواة والعدل عن طريق نزع الارض وتوزيعها على المحتاجين اليها مجانا، وتحقيق الاخاء والسلم والمحبة بين جميع الرعايا، وقد بدأ القرامطة عملهم في العراق والبحرين، حيث ظهرت كقوة اكثر تنظيما، وحنكة سياسية وذات برنامج واضح ناتج عن استفحال الانقسام الطبقي في المجتمع وقد شكل القرامطة حكمهم في البحرين والبصرة ووصلوا الحجاز والشام، وطبقوا نظامهم الاجتماعي، واعطوا الحريات الدينية والعامة، وكان لهم مجلسهم العقدي (برلمانهم) ... الخ ومن زعمائهم حمدان قرمط وابو سعيد الجنابي، وابو طاهر الا ان عملهم شابه بعض المغامرة اليسارية في التعرض للحجاج والاعتداء على المقدسات الامر الذي نفر اناسا منهم وجعلهم عرضة للتشويه والقدح والاتهام بالزندقة، ثم حالفوا الفاطميين الذين خدعوهم ثم حاربوهم، وقد حقق عهدهم انجازات اقتصادية واجتماعية كبيرة من الغاء الضرائب والملكيات الى تحرير المرأة ... الخ الا ان هذه الثورة لم تنجح في الاستمرار في ترسيخ نظامها بسبب كثرة اعدائها وبروز التناقضات الداخلية فيها.

كما ظهرت ايضا حركات العوام من الشطار والفتوة والحرافيش وغيرها والتي كانت ايضا رد فعل موضوعي على حالة القهر التي يعيشونها.

ساهمت هذه الثورات في هز الخلافات المتعاقبة وتجزأة الامبراطورية الواسعة واضعاف قوة السلطة المركزية الا انها لم تستطع دك النظام الاقطاعي، ورغم ذلك طورت القوى المنتجة واضعفت الرق، وبثت الروح الثورية في المجتمع مقابل الجبرية التي استخدمت كأيديولوجيا للدولة الاسلامية.

الايديولوجيا: في كل الحالات استخدمت دولة الخلافة الفلسفة الجبرية (الخلافة حق الهي .. كل شيء هو من ارادة الله وعزلت القدر عن القضاء، بينما ظهر المعتزلة كقدريين عقلانيون والمرجئة كقدريين ايضا، وظهر اخوان الصفا الذي تلقفت رسائلهم الطبقات الشعبية، اما ايديولوجيا الحركات الشعبية فقد تعددت من جبرية الشيعة الى قدرية المرجئة الى ثوريي القرامطة. وفقط كان المأمون وحده هو الذي تبنى ايديولوجية المعتزلة فاذا ما انتهى حكمة تبنى الباقي جبرية الاشاعرة.

تقييم للكتاب: يبقى هذا الكتاب اضافة جيدة للكتب التقدمية التي تعالج تاريخنا وتحاول ان تدرسه بعين ناقدة، كما ان تبويبه موفق الا ان سعة العصر الذي يعالجه قد دفعه للاختصار في كثير من الامور، والاحداث، كما ان الكتاب لم يعرج وهذا نقد عليه وهو مهمة كتاب آخرين - على التاريخ الاندلسي للاسلام، وما جرى فيه فلا بد ان حركات قد قامت، ولا بد من توضيح اوجه التمايز بين بني العباس ورجالات الاندلس وبين رجالات الاندلس، وحكم اسلافهم من بني امية.

Digitized by Birzeit University Library

آراء للمناقشة من الحياة ... والادب والثقافة

محمود الخطيب
مخيم الدهيشة

انا انسان هوايته الاولى والاخيرة - علاوة على الاعتناء بالحديقة - القراءة وكثيرا ما رأيتني اكتب أو الخّص ما اقرأ ... وهكذا وجدتني وقد تجمعت لدي كثير من الآراء والافكار التي قد تعجب البعض، وقد تدفع الى كثير من المناقشة وطرح الآراء المغايرة. وها انذا أعرضها فان حسُنت فبها، وإلا فهي على كل حال لا تخلو من طرافة أو فائدة.

ولا انكر أن هذه الآراء المعروضة، بعضا من أفكاري أو أنها على الأقل قد لاقت هوى في نفسي ... على أنني كنت في كثير منها كحاطب في ليل يجمع من الحطب ما يلزم وما لا يلزم، حتى اذا طلع النهار تبين له ما في احتطابه من عشوائية ... ومن جودة في البعض. فأتذكر قول ذلك الشاعر:

ونذل الرجال كنذل النبات فلا للثمار ولا للحطب!

ولنبدأ بعرض ما في (جراب الحاوي) هذا من آراء:-

١- يمر بعضنا على ان يغذي احساسا مزمنا بالضيم ضد ما نسميه (حظنا) ويبدو ان اولئك الذين يجأرون بالشكوى اكثر من غيرهم، بأنهم غير محظوظين، لديهم هم انفسهم بعض العيوب التي تسهم - بطريقة ما - في سوء حظهم.

ان اولئك الذين لهم حظ مشروع في الشكوى من القدر (كالمعيان والعاجزين والمحرومين من الميراث) هم اقل الناس شكوى فعلا. وهم غالبا ما يواجهون نواحي عجزهم كامتحان لقيمتهم الداخلية الحقيقية. وهم لا يفرغون سخطهم ومرارتهم على اصدقائهم وجيرانهم الابرياء.

وهناك علاج لحمّى جمع الاحزان، وهو علاج بسيط جدا مؤداه ان تمسك بخناق نفسك وتسأل: ماذا صنعت بحيث اتوقع خروج افضل الاشياء؟. ماذا فعلت للآخرين حتى اتوقع منهم الاهتمام الرقيق؟ هل انا حقا من المهارة والطيبة كما اظن في نفسي؟ ومن انا حتى اتوقع - وحدي ودون كل الناس - ان أعفى من الألم والاهمال والظلم؟.

وحتى لو كان عندك احساس حقيقي بالضيم، فلا تضعه في صندوق زجاجي وتحدق فيه، بل اقذفه بعيدا وتمرد على هذا الضيم وعش بقلب اكثر مرحا وقدم اكثر رسوخا. فهذا افضل من العويل.

٢- قد يعيبون على الحياة الديموقراطية، والتي نفتقدها مع الاسف في شرقنا العربي، انها تتصف بأناة في التنفيذ ... ولكن القوانين ليست نزوات تتفصد من اغراض حاكم مطلق، بل هي مظهر ارادة الأمة والضمان الضروري لها تجاه الحكومات. وهكذا فسرعة البت عند الحكومات الفردية تكون دائما على حساب ارادة الشعب. وقد تقيم الديكتاتورية اصلاحات ولكنها لا تنشىء نهضة. وفرق بين الاصلاح والنهضة.

فالنهضة تعني فيما تعنيه التحرر من الانظمة التي فقدت ضروراتها وحقها في الوجود، وابدالها بأنظمة تتمثل فيها احتياجات الامة. اما الاصلاح فلا يعدو ان

Digitized by Birzeit University Library

يكون بناء يشاد او مدرسة تفتح. النهضة نهج عام للحياة وثراء في كل شيء: الاخلاق والمعرفة والانتاج. ومحاولة الاصلاح في جو الصرامة والقسوة محاولة غبية، ما دام هذا الاصلاح ممكنا في جو من الحرية والسكينة، وان قصة اثينا واسبرطة لتعطينا الدرس والمثل. عُنيت اسبرطة بدمج الفرد في الدولة ووضعت المجتمع تحت رقابة صارمة، وكانت تهدف الى انشاء جيل راق يتسم بالبطولة، ولكنها ضلت الطريق.

اما اثينا فقد ابقت للفرد والمجتمع حريته فكانت النتيجة ان ترعرعت المواهب الانسانية بشكل نادر، مما انجب سقراط وافلاطون وأرسطو وبركليس وفوستوكليس، في الوقت الذي ظلت فيه اسبرطة حيوانا عقيما لا ينجب مخلوقا نابها .. وحتى عندما داهمت الجيوش الغازية اسبرطة واثينا، ماتت الاولى الى الابد. اما الثانية فمازالت تعيش في الانسانية كلها!.

وهكذا فالدكتاتورية ليست مناخا صالحا لاستنبات شعب قوي وانسانية متفوقة، ذلك لأن الصعوبة ليست في اقامة نهضة عمرانية، ولكن في ان تقيم نهضة بشرية وسط شعب مكبل.

وعلينا ان ندرك ان الحكم المطلق يفسد صاحبه، ولو كان قديسا، ولقد قرأت عن مفارقة بليغة في حياة هتلر ... فلقد رأى وهو شخص عادي كتابا معروفا في واجهة مكتبة استهواه، ولكنه لم يستطع ان يشتريه فتمنى ان يكون احد الاثرياء ولو ليوم واحد حتى يتمكن من وضع ثروته في خدمة العلم، واباحة فرصة للجميع. ولكن ما ان تربع على عرش السلطة المطلقة حتى امسى - ذلك العتيم بالكتاب المعروض - اكبر عدو للعلماء، فلقد اغلق في عنف هستيري اقدم جامعة في اوروبا هي جامعة براغ، وزج في السجون بعشرات الآلاف من رجال الثقافة ... بل انه بلغ به الحنق ان دبر لأساتذة جامعة كراكاو خدعة تشبه مذبحة المماليك على يد محمد علي في مصر. اذ دعاهم الى محاضرة عن الاشتراكية الوطنية الألمانية حتى اذا انتهت واهموا بالانصراف، فوجئوا بعربات النازي تنتظرهم بالباب حيث قدسوا كالخراف ونقلوا الى سجون برلين ومعاقلها!!.

٣- انا اعتبر البيت هو المدرسة الحضارية العظمى من ناحية تأثيره. فهو اول وأهم مدرسة للشخصية، وفيه يتلقى كل شخص متمدن اعظم دروسه الاخلاقية او اسوأها. والقانون ذاته إن هو الا انعكاس لتعاليم البيت فأوهن الآراء وأقلها مما يبذره البيت في رؤوس الاطفال في الحياة الخاصة يخرج بعد ذلك الى الدنيا ويشكل الرأي العام بها.

٤- اصحاب القلوب الرقيقة تتعالى اصواتهم احتجاجا وتباكيا على اصطياد الوحش في الغابات، خشية انقراضها، وعندهم انه ليس من الانسانية ان يقضي الانسان على الحيوان مهما كان الدور الذي يقوم به ذلك الحيوان.

هذه القلوب الرقيقة لم تضطرب لحظة واحدة لما نلقاه من تقتيل واضطهاد اللهم الا من القليل القليل من المثقفين!!

ويظهر انه من الانسانية ان يكون الانسان رقيقا مع الحيوان، وليس رقيقا مع الانسان ... خصوصا انسان هذه البلاد من ابناء شعبنا الصبور.

ان كل سوط ينزل على الظهر يوجع كل البشرية او هذا هو المفروض. وهكذا فان العطف الانساني على الحيوان ما هو الا نوع من الترف ... اما (الضرورة) فهي ان نعطف على الانسان. ام ان موازين الذوق مقلوبة في هذه الايام؟!

٥- ان المال ليس جبانا كما يقولون، ولكنه ماكر خبيث وقد ينكمش امام بعض العوارض الطارئة والظروف المعارضة، ولكنه دائما على درجة مشحوذة من الجرأة واليقظة والتأهب للعمل السريع ... وحتى الآن لم تعرف الانسانية سلاحا تقل به المال، فلا يزال هو الى ما شاء الله فارس الحلبة دون منازع. فاذا كنا ثلاثة في سفر وأحدنا يملك المال شعرنا - نحن الاثنين الفقيرين - بأننا دونه وبرغبة فطرية في تملقه او على الاقل مداراته ومسايرته، وهذا المثل يتكرر في الاسرة وفي السوق وفي المجتمع الكبير. ولهذا تحرص الحكومات على ان تتأكد ان زمام المال في يدها الى حد ما ...

والانسان ضحية تعسة لاطماع الذين يملكون. الضيق يخنقه وفي ذمته تتمايع القيم الاخلاقية ... وفي مجتمعات مثل مجتمعاتنا ترى الذين يسرقون يستطيعون - في الغالب - ان يسودوا ... والرذيلة تمشي في الطرقات مختالة متعالية مخّابة، بينما تتهالك الفضيلة مسكينة بلهاء ... اما الصراحة والنبل والكبرياء والتعفف فلم تعد غير ظواهر شاذة لعصور الابطال؟.

٦- ان الناس بوعي او بدون وعي يستقون - في النهاية - افكارهم الاخلاقية من الشروط المادية التي يقوم عليها وضعهم الطبقي. وفي الشروط الاقتصادية التي ينتجون فيها ويتبادلون منتجاتهم ... ولقد كانت الاخلاق دائما اخلاقا طبقية. فاما ان تبرز السيطرة ومصالح الطبقة المسيطرة واما ان تمثل التمرد على هذه الطبقة المسيطرة ومصالح مستقبل المظلومين. وذلك حالما تصير الطبقة المظلومة قوية قادرة بشكل واف.

ان الطبقة التي تتصرف بوسائل الانتاج المادي تتصرف بالتالي بوسائل الانتاج الفكري. فالافراد الذين يؤلفون الطبقة المسيطرة لهم - فيما لهم - وعي فهم يفكرون اذن به. ومن الواضح انهم في النطاق الذي يسيطرون فيه سيطرة طبقية ويحددون حقبة تاريخية كاملة - يفعلون

Digitized by Birzeit University Library

ذلك في جميع الميادين ويسيطرون ايضا ككائنات مفكرة وكمنتجين للأفكار، وينظمون انتاج افكار عصرهم وتوزيعها، وتكون افكارهم بالتالي هي افكار العصر السائد.

وبعد: فلقد كانت الآراء التي اوردتها على مثال «من كل قطر اغنية». عسى الا اكون حين اوردتها قد اثقلت على احد او ان اعكس او اعطي انطباعا بالتعالم، او الجلوس مجلس الذي ينثر المواعظ هدى الله الجميع

*****

الاحتفال باليوم العالمي للتراث الشعبي الفلسطيني

عقدت جمعية المجلس الأعلى للفولكلوريين الفلسطينيين يوما دراسيا مكثفا احتفالا باليوم العالمي للتراث الشعبي الفلسطيني يوم السبت ١٩٩١/٧/٢٠ في مقرها المؤقت في البيرة، وكان برنامج الاحتفال مليئا بالفقرات المختلفة جمعت الجوانب الاكاديمية لتراثنا الشعبي، والجوانب الفنية.

وقد افتتح الاحتفال عند الساعة التاسعة والنصف صباحا عندما تقدم طفل وطفلة بالزي الشعبي الفلسطيني فحييا الحضور واعلنا عن بدء الاحتفال مع تلاوة آي من الذكر الحكيم والرحمة على أرواح الشهداء، تلا ذلك كلمة عريف الحفل عبد العزيز أبو هدبا/أمين سر الجمعية، والذي نوه بأهمية تراثنا الشعبي في مختلف جوانبه ثم قدم رئيس الجمعية الدكتور عبد اللطيف البرغوثي كلمة موجزة عن الجمعية وأهدافها واهتماماتها.

وتتابعت الكلمات فألقى الاستاذ وليد ربيع كلمة الدكتور امين الخطيب الذي اعتذر عن الحضور. ثم كانت كلمة السيدة سميحة خليل رئيسة جمعية انعاش الاسرة التي حيت كل القائمين على العناية بتراثنا الشعبي وحمايته مما يتهدده من أخطار الطمس والانتحال.

ثم كان الجانب الاكاديمي من هذا اليوم الدراسي والذي استهل بمحاضرة قدمها الدكتور شريف كناعنة تحت عنوان «الحوافز الوطنية في مجال الابحاث الفولكلورية».

ثم تلاه الدكتور أحمد بكر الذي قدم محاضرة بعنوان «سيكولجية المثل الشعبي». وبعدها جاءت محاضرة الاستاذ عبد العزيز أبو هدبا تحت عنوان «دور الصحافة المحلية في عملية الاهتمام بتراثنا الشعبي».

وفي ختام هذا الجانب كانت الندوة الشاملة التي شارك فيها كل من: الدكتور رشدي الاشهب، الاستاذ موسى علوش، الاستاذ وسيم الكردي. وتغيب عن الحضور السيد سليم المبيض من غزة وجاءت لتلقي الاضواء على جهود تطوير الحركة الفولكلورية الفلسطينية.

وبعد ذلك كان الجانب الفني الذي اشتمل على: فقرة للدبكة قدمتها فتيات منزل أطفال الشهداء في جمعية انعاش الاسرة. ثم تلا ذلك عزف على الربابة للشاعر الشعبي محارب ذيب. وعادت فتيات منزل أطفال الشهداء في الجمعية ليقدمن عرضا فولكلوريا قصيرا بعنوان (حكاية ظريف الطول).

كما قدم صالح عصفور أبياتا من العتابا.

واختتم هذا الحفل بفقرة زجلية شارك فيها كل من السيدين ثائر البرغوثي، وعوني البرغوثي.

Digitized by Birzeit University Library

دراسة نقدية لمجموعة

«وتستمر الحياة»

ليعقوب الاطرش (١)

د. عيسى محمد أبو شمسية
دائرة اللغة العربية وآدابها/ جامعة بيرزيت

«وتستمر الحياة» هي المجموعة القصصية الاولى للقاص الفلسطيني يعقوب الاطرش (٢)، وهي تمثل تطور فنه القصصي، فنيا وموضوعيا، عبر رحلته القصصية الطويلة نسبيا، والتي تمتد الى اكثر من ثلاثين عاما. وتضم المجموعة سبع عشرة قصة قصيرة مرتبة ترتيبا زمنيا تصاعديا وفق تاريخ كتابة كل منها، فقد كتبت اولاها عام ١٩٥٦، وأخراها عام ١٩٨٧. ومع قناعتنا الكاملة بأن هذه المجموعة - وكل مجموعة قصصية اخرى مهما بلغت من الجودة الفنية ومهما بلغت قدرة مبدعها على امتلاك ادوات الابداع الفني - لا يمكن أن تصور مسيرة فن القصة القصيرة في فلسطين، فاننا نرى أنها - أي هذه المجموعة التي نحللها - تحمل من الناحيتين: الفنية والموضوعية، سمات مرحلة بدايات هذا الفن القصصي في فلسطين منذ مطلع الخمسينيات.

وقد قدم الكاتب لمجموعته ببعض الايضاحات التي تلقي ضوءا على ظروف ابداعه لقصصه ورحلتها الى عالم النشر سواء عن طريق اذاعة بعضها من اذاعة القدس العربية «هنا القدس» ضمن برنامج «قصة الاسبوع» او اذاعة «القدس تنادیکم»، أو عن طريق نشر ما أذيع منها وكذلك بعض ما كتب بعد ذلك في بعض الصحف كصحيفة «الشعب» و «القدس»، وكذلك في بعض المجلات كمجلة «الاسرة» و «الشراع» و «عبير». كما انه قد اورد بعض الملاحظات النقدية التي توخى منها - فيما يبدو - أن يعبر عن بعض آرائه من فن القصة. ففي اشارة فنية ذات دلالة مهمة يقرر الكاتب في مقدمته أن «لكل من هذه القصص ذكريات خاصة في نفسي.. تعود بي الى سنوات الماضي.. بحلوها ومرها.. بربيعها وخريفها.. بنضرتها وكآبتها.. بهدوئها وفورانها.. وترتبط بشكل او بآخر بأحداث بارزة من تاريخنا المعاصر.. بدءا من تأميم قناة السويس والعدوان الثلاثي على مصر.. والى حين بدء الانتفاضة الفلسطينية» (المقدمة: ٨). الا اننا لا نرى - في واقع الامر - انعكاسا ولتلك الاحداث البارزة من

Digitized by Birzeit University Library

تاريخنا المعاصر، في قصص المجموعة. وما نراه هو انعكاس لما جرى من احتلال لفلسطين وانعكاساته على حياة الفلسطينيين، بطريقة متوارية وغير مباشرة، والذي شكل - بالفعل - خلفية لاحداث معظم القصص.

وفي موضع آخر من المقدمة يحاول الكاتب أن يبين للقارىء انه يشعر الآن بأن الوقت قد حان ليتفرغ لكتابة القصة الواقعية، خاصة وانه عايش وعاصر وشاهد بأم عينيه.. احداثا واقعية.. هي أغرب من كل خيال (المقدمة:١٠). واذا صح ما ذهب اليه المؤلف (٣) من أن انصرافه الى الكتابة عن احداث واقعية.. هي أغرب من كل خيال» سيتحقق في مجموعة قصصية له - تحت الاعداد - (وهي التي صدرت فيما بعد بعنوان «حصاد الريح»)، فان من حق القارىء أن يستنتج من عبارة الكاتب تلك ان قصص المجموعة الحالية - وتستمر الحياة - ليست قصصا واقعية. ونحن لا نعتقد ان الكاتب يحب أن توصف قصصه بأنها غير واقعية. ولكن يبدو أنه أخطأ التعبير. وشبيه بهذا ما ذهب اليه الكاتب ايضا حين وصف الاحداث الواقعية التي سيكتب عنها بأنها «اغرب من كل خيال». فهو، وإن كان يقصد التأكيد على اتصاف تلك الاحداث بالواقعية الاكيدة، قد ينفي عنها ما أراد أن يصفها به.

هذا فيما يخص المقدمة، أما قصص المجموعة ذاتها، فان اهم ما يسترعي انتباه الدارس لها امران مهمان:

الاول: التنوع في الموضوعات التي تعالجها قصص هذه المجموعة. وهو تنوع يظهر في القصص الاولى ويستمر، ولكن بوتيرة أعلى، كلما تقدمت مسيرة الكاتب القصصية. واذا ما اجزنا لانفسنا - ولاسباب فنية محضة تتعلق بتسهيل عملية الدرس الفني - أن نجعل من حرب حزيران عام ١٩٦٧ حدا فاصلا بين مرحلتين متميزتين من مراحل انتاج الكاتب القصصي، فاننا نلاحظ أن الموضوعات الغالبة على قصص المرحلة الاولى، أي السابقة على حرب حزيران، هي موضوعات اجتماعية وانسانية اقتضت معالجتها طبيعة الظروف التي عملت على تطور المجتمعات العربية فيما بعد الحرب العالمية الثانية. أما الموضوعات ذات الطابع الوطني فكانت ضئيلة وباهتة الملامح في هذه المرحلة. ولكن الصورة اختلفت تماما في المرحلة القصصية الثانية، حيث ارتفع ايقاع الهموم الوطنية الجماعية ارتفاعا ملحوظا بحيث غلب او كاد على أجواء معظم القصص، كما تراجع اهتمام الكاتب بالقضايا الاجتماعية والهموم الفردية الى حد كبير.

الثاني: أن نجاح الكاتب في تطوير ادواته الفنية، وخاصة ما يخص صياغة البنى الفنية وأساليب القص كان محدودا، لهذا لم يستطع أن يتخلص من بعض العيوب الفنية التي صاحبت نشأة فن القصة القصيرة وتطوره، لذلك بقيت قصصه حتى المتأخرة منها تحمل الملامح الفنية للمرحلة السابقة على نشوء فن القصة القصيرة في فلسطين، وهي «مرحلة التعبير النثري المباشر، والتقرير عالي النبرة، والاخذ بفكرة الوعظ والتوجيه المباشر، والجري وراء المغزى الصارخ» (٤). لهذا سادت الاساليب الفنية التي استخدمها الكاتب في معظم قصصه التي صدرت بعد ذلك، فيما عدا لجوئه الى استخدام أسلوب الرمز وخاصة الرمز الديني في بعض قصصه ذات المضامين الوطنية التي تنتمي الى المرحلة الثانية من انتاجه القصصي. ولعل غلبة بعض انماط القص التقليدية التي شاعت في قصصه الاولى، كأسلوب السرد المباشر مثلا، والتي بقيت مهيمنة على معظم قصص المجموعة تفسر ظاهرة خاصة ببعض القصص، ونعني بها أن الكاتب لم يتردد في نشر قصص معينة في فترات زمنية متباعدة، وفي أماكن مختلفة، ربما بدون تغيير أو تبديل (٥).

وفي ضوء الامرين السابقين يمكننا أن ننظر في قصص مجموعة «وتستمر الحياة» على نحو أكثر تفصيلا.

يعرض الكاتب في قصته (نهاية قمة) لتجربة انسانية مؤلمة مر بها العم صالح شخصيا، وهو يحكيها لمحدثه، راوي القصة. وهي قصة صبي اصيب بالتهاب مزمن في الدماغ، ولم تجد في علاجه مداواة بالاعشاب البرية ولا أدوية الاطباء، ولكنه يشفى بعداجراء عملية جراحية دقيقة ومعقدة على يد طبيب اخصائي شهير يجيء الى مدينة القدس زائرا. ويفاجيء العم صالح محدثه بأن ذلك الصبي هو ابنه (فتحي) الذي اصبح طبيبا يعرفه الراوي. أما في قصة (الام) فيتناول الكاتب ظاهرة اجتماعية وانسانية معروفة وهي عقوق الابناء للوالدين او لاحدهما. فعادل محسن، وهو أحد كبار رجال الاعمال، يتنكر لأمه التي حاولت أن تصحح سلوكه المنحرف بعد وفاة أبيه فلم يرتدع عن غيه وزاد في أن قسا عليها وأساء معاملتها واتهمها بالجنون ورحل الى العاصمة تاركا اياها تصارع الحياة وحيدة، فتعمل خادمة في البيوت ومن بينها بيت صديق للراوي، الذي يحكي له قصة أم عادل، بينما كانا جالسين - راوي القصة وراوي قصة الام - في حفلة دعاهما اليها عادل محسن هذا. وحين يفاجيء الصديق راوي القصة بحقيقة أن أم عادل البائسة هي أم مضيفهما، عادل محسن، يصاب بالذهول قائلا: «يا للهول.. أم عادل المسكينة.. التقية.. البائسة.. ام لهذا الثري الكبير؟!! أي مهزلة أسمع؟! وأي سخرية أفظع من هذه؟!» (المجموعة: ٣٥). ولا يخفى على القارىء أن الاجواء التي تغلب على هاتين القصتين ليست بعيدة عما كان يجري في بعض

Digitized by Birzeit University Library

المجتمعات العربية من مشكلات اجتماعية وممارسات حياتية شاعت في مطلع الخمسينيات من هذا القرن.

واذا كان الكاتب قد تناول بتعاطف ظاهر شخصية المرأة في هذه المرحلة، ممثلة في الام التي تذكر لها ابنها العاق، فانه في قصة اخرى بعنوان: «السكرتيرة المطلوبة»، يتعرض باسلوب تغلب عليه السخرية الناقدة لبعض المظاهر الزائفة التي تتمسك بها فئة من نساء مجتمعاتنا العربية، من مثل اعتبار الغنى والجمال وسحر الجاذبية، مؤهلات مضمونة لنيل الوظائف والعمل الى جانب الرجال. لقد هيأ الكاتب ذهن قارئه الى ان هالة، وهي شابة تتقدم الى الحصول على وظيفة سكرتيرة في احدى شركات المواد الطبية، معتمدة على سحر انوثتها وأناقة ملبسها وجمال تسريحة شعرها، ستتغلب بسهولة على منافسة لها على الوظيفة، ذات اوصاف تناقض أوصاف هالة، فهي نحيفة تجاوزت الاربعين من عمرها، طويلة الانف شاحبة الوجه متهدلة الشعر. ولكن القارىء يفاجأ، تماما كما تفاجأ هالة، بأن الوظيفة ستكون من نصيب المرأة الثانية. ويسرع الكاتب الذي يريد أن يخفف من وطأة هذه المفاجأة الى الكشف عن ان سر هذه النتيجة غير المتوقعة يكمن في ان الذي كان يجلس على كرسي الادارة امرأة ولم يكن رجلا (المجموعة: ٢٦). واذا كان القارىء يشعر حيال موضوع هذه القصة، لاول وهلة، بأن موضوعها أوفكرتها غريبة على روح المرحلة الاجتماعية التي سادت مجتمعنا الفلسطيني عقب نكبة ١٩٤٨، والتي لم تكن مهيأة بعد لطرح ظاهرة خروج المرأة الى ميدان العمل جنبا الى جنب مع الرجل، فان مرد ذلك - في الغالب - الى تأثر الكاتب باجواء اجتماعية سادت بعض المجتمعات العربية التي تعرضت اكثر من غيرها لرياح الانفتاح على قيم اجتماعية وفكرية وافدة. ومع ذلك فاننا لا نستبعد امكانية أن يكون الكاتب مشغولا في قصته تلك بالحقيقة الاجتماعية التي تقوم على الافتراض بأن نجاح الانسان مرهون بفعله ومخبره لا بمظهره، او أنه كان معنيا بفكرة ان المرأة المسؤولة لا تحب ان يكون من بين مرؤوساتها من تفوقها جمالا وجاذبية.

ولا يكتفي الكاتب، في هذه المرحلة من انتاجه القصصي، بالانشغال بموضوع المرأة وانما يحاول ان يعالج بعض المشكلات التي يعاني منها قطاع الموظفين بسبب ضآلة مرتباتهم الشهرية. ففي قصته (آخر الشهر) يعرض لمعاناة موظف مضى على عمله في احدى الشركات الكبيرة تسعة عشر عاما ولم يتجاوز دخله الثلاثين دينارا. وحين قدر له ان يحصل على عشرة دنانير اضافية مقابل مراجعته حسابات احدى الشركات، لم يلبث ان انفقها جميعها في نفس اليوم على مرض الم بولده الرضيع. والى جانب هذا، فان القصة تتعرض لتصوير بعض الممارسات الاجتماعية التي تقوم على تقديم المصالح الذاتية او الفردية في العمل على الكفاءة والخبرة والاقدمية، ولذلك تصور القصة حرمان ذلك الموظف البائس من أن يتولى منصب مدير فرع للشركة التي يعمل فيها، مع استحقاقه ذلك منذ سنين. وهو يحرم من مثل ذلك المنصب للمرة الثانية اثر نقل مدير الفرع الى مكتب الشركة الرئيسي في العاصمة، وذلك لان أحد اثرياء المدير العام قد احتله. ولا تعود حياة ذلك الموظف البائس الا انتظارا دائما لآخر كل شهر، دونما تغيير يذكر. ومما يجدر ذكره هنا ان الكاتب يعالج موضوعا مماثلا لهذا الموضوع في المرحلة الثانية من انتاجه القصصي وذلك في قصته له بعنوان: (أمل).

وتحمل هذه المرحلة القصصية الاولى من انتاج الكاتب، الى جانب الموضوعات الاجتماعية والانسانية سالفة الذكر، بذور الموضوعات الوطنية التي برزت ونمت بقوة في مرحلته القصصية الثانية، وذلك من خلال قصتين هما: (ذكريات الماضي) و (قارئة الكف).

ففي القصة الاولى يتطرق الكاتب الى حقيقة مؤلمة في ضياع الوطن: (فلسطين)، الذي لم يعد الا صورة من صور الذكريات التي تعيش في خيال بطل القصة وفي خيال بطلتها ايضا، اللذين يلتقيان صدفة بعد حوالي عشر سنوات من نكبة عام ١٩٤٨، في احدى متنزهات جبال لبنان. ويكتشف البطل بعد رحيل تلك المرأة انها سوسن، تلك الفتاة الجميلة الخجول التي كانت تقابله في مدينة يافا وهي في طريقها الى المعهد الذي كانت تدرس فيه، حين كان هو في طريقه الى كليته أيضا. على أننا نلاحظ هنا انه على الرغم من أن القصة تدول حول ضياع الوطن، فانها تخلو من أي مظهر من مظاهر المعاناة التي رزح تحتها الفلسطينيون في أعقاب هجرتهم. بل على العكس من ذلك نرى ان كلا من البطل والبطلة يهرب من حياة اللهو والدعة في متنزه في مصيف (بكفيا) اللبناني وانها على جانب من الغنى وسعة الحال. وعليه، فاننا لا نستغرب ان يكون الوطن بالنسبة اليهما مجرد صورة من صور الماضي، ولوحة من الذكريات: «ذكريات الشاطىء.. ومع الحلم الجميل الذي يلوح الآن في الافق كأمنية غالية: العودة الى هناك؟!» (المجموعة: ٥٢). وليس ينفع في الدفاع عن تركيز الكاتب على هذه الشريحة من الفلسطينيين الاثرياء حقيقة انهم موجودون بالفعل، اذ انه ربما كان من الافضل لتصوير معاناة الفلسطينيين عقب مأساة ١٩٤٨ أن يكون أبطال القصة ممن فقدوا كل شيء: الوطن والمال والولد، ولعشرات السنين القادمة.

وتدور القصة الثانية (قارئة الكف)

Digitized by Birzeit University Library

حول شابة تجيد قراءة الكف، تنبأت في حفلة عيد ميلاد أخ لها يبلغ الثلاثين من عمره بأن مكروها سيحدث له، يتمثل في اصابته بداء التيفوئيد الذي يكتب له ان ينجو منه، ولكنه لا ينجو بعد ذلك من حادثة نسف فندق الملك داود بالقدس عام ١٩٤٨. وقد عبر الكاتب عن هذا الحادث الجلل بلهجة خطابية وانفعال ظاهر ولفة عاطفية حين وصفه بأنه «افظع من كل الكلمات.. والمصيبة أكبر من كل الاحزان.. في النفوس الواجمة الملتاعة.. التي هدها الخطب وأذهلتها الفاجعة.. فاستنكرت الجريمة الأثمة النكراء!» (المجموعة: ٦٠ - ٦١).

ومع ذلك فاننا نلاحظ ان هذا الحدث الذي تسبب في موت أخي قارئة الكف (سامي) لا يشكل اكثر من مناسبة تجعلها «تطلق» قراءة الكف وتنخرط في سلك التمريض لتساهم في خدمة الوطن وتؤدي بعض الواجب نحو روح اخيها الشهيد (المجموعة: ٦١). ولعله يجدر بنا ان نشير الى أن الحنين الى الوطن السليب لا يشكّل اكثر من خلفية باهتة الملامح لأحداث القصتين، وأن الهموم الذاتية هي التي تسيطر على اجوائهما.

وترتفع وتيرة صوت الوطن بشكل لافت للنظر في قصص المرحلة الثانية بحيث تصبح هذه القصص في غالب الاحيان تسجيلا دقيقا لمظاهر عديدة من معاناة الفلسطينيين عقب حرب حزيران عام ١٩٦٧. وهذا - من غير شك - يؤثر على اختيار الكاتب لاحداث قصصه وشخصياته الفنية وعلى تحديده للاطر الزمانية والمكانية التي تحتوي تلك الاحداث والشخصيات. لذلك نلاحظ نوعا من التحول في اسلوب الكاتب من حيث الابتعاد قليلا عن المباشرة والاقتراب، ربما بنفس القدر، من عالم الرمز والايحاء، كما نلاحظ توجها نحو المزاوجة بين تصوير الهموم الوطنية وبين رصد التحولات والتغيرات في الحياة الاجتماعية. ولعل شخصية الصبي (حربي) بائع الجرائد في ساحة «باب العامود» في القدس بطل قصة (امنيته الصغيرة) مثال حي على مثل هذا التحول في أسلوب الكاتب القصصي. فحربي هذا الذي يصر والده على تسميته بهذا الاسم بدلا من صبري، مخالفا بذلك مشيئة أمه، يولد ليلة العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦، ويشهد حرب عام ١٩٦٧. وهو على صغر سنه يدرك أن مدينته - القدس - قد تغيرت بعد حرب حزيران، فالناس أقل اقبالا على شراء الجرائد والمدينة مليئة بالغرباء الذين لم يعتد على رؤيتهم قبل ذلك. وشبيه بشخصية حربي ابن الثانية عشرة شخصية الطفلة ابنة السابعة، بطلة قصة (شجرة العيد)، التي يصعب عليها أن تتخيل عيد ميلاد يجيء ويحتفل به دونما شجرة عيد. وهي ايضا تلاحظ ان هناك وجوها غريبة في كنيسة المهد وحول الطفل في المذود، كما تستمع الى رطانة غريبة تفسد عليها حلاوة لحظات الخشوع في ذلك المكان القدسي (المجموعة: ٧٧ - ٧٨).

واذا كان الكاتب قد دلل على وعي هذه الطفلة للواقع الجديد بعد حرب حزيران بملاحظاتها هذه، فانه قد جعل الصبي (حربي) أقرب الى الفعل في رد فعله حين جعله يعلن بملء فيه عن اخبار جديدة، وهو يقول: «اخبار هامة.. غرق المدمرة ايلات.. الصواريخ العربية تفرقها في دقيقتين» (المجموعة: ٦٩). بل ويجعله هذا الوعي يدخل في عراك مع ذلك الرجل الغريب فيركله بقوة، الامر الذي رد عليه الاخير باطلاق رصاصة على الصبي الهارب فأخطأه واصاب بدلا منه صورة كبيرة لرجل تتصدر الصفحة الاولى في الجريدة، وبذلك تتحقق الامنية الصغيرة لذلك الصبي (المجموعة: ٧٢).

ولا يكتفي الكاتب بتصوير معاناة الناس في وطنهم وانما يعمل على أن يرصد معاناة بعضهم في اقطار عربية اخرى حيث اضطرتهم ظروف معيشتهم الى الهجرة والعمل هناك، لهذا فهو يقارن بين ماضي حياة الزوج في قصة (نهاية الليل)، في مدينة حيفا حيث كان يعمل مديرا لاحدى الشركات فيها، وبين حاضره بعد نكبة عام ١٩٤٨ حيث يعمل في ميناء آخر في مدينة عربية اخرى. وعلى الرغم من صعوبة الحياة في هذه المدينة الجديدة، فان الزوج ينجح في عمله الجديد، الامر الذي احفظ عليه بعض مبغضيه، فانتهى به الحال الى فصله من عمله ثم ادانته وسجنه (المجموعة: ٩٨).

ويعرض الكاتب في قصص اخرى في مجموعته لبعض مظاهر معاناة شعبه من مثل محاكمة ذلك الرجل في قصة (من السارق) الذي تمتد يده لتقطف عنقود عنب من ارضه التي اضطر الى مغادرتها قبل ثمانية وعشرين عاما، متهما بتهمة سلب ما ليس له (المجموعة: ١٠٦)، ومن مثل ذلك الاب الذي يعود من الخارج عبر الجسر في قصة (السقوط) فيرى صورة ابنه (قاسم) على الصفحة الاولى من الجريدة (المجموعة: ١٢٥)، وكذلك الام التي تحرم هي واولادها من الشرب من ماء البئر الذي يقع في بيتها المغلق، كما في قصة (وتستمر الحياة) (المجموعة: ١٤١). واخيرا اعتقال صبي بريء اتهم برشق الجنود بالحجارة، كما في قصة (الصبي المطلوب)، بدلا من صبي آخر قام بذلك بالفعل، ولكن الأخير نجا لانه نجح في ان يختبىء تحت كومة من القش في مكان غير بعيد (المجموعة: ١٥٠).

اما البعد الاجتماعي في قصص المرحلة الثانية فيتراجع بشكل ملحوظ - على عكس ما هو الحال في قصص المرحلة الاولى، مثلما بينا - فالكاتب يعالج بعض مظاهر

Digitized by Birzeit University Library

الحياة الاجتماعية، والتي تبقى متأثرة - بطبيعة الحال - بالظروف السياسية العامة التي تكتنف حياة الناس، من مثل ظاهرة الغلاء، كما في قصة (أمل) التي سبقت الاشارة اليها، ومن مثل التحديات البالغة التي تواجه الطلاب الذين يتقدمون لامتحان الشهادة الثانوية العامة، كالحصول على معدلات عالية جدا اذا ما ارادوا ان يفوزوا ببعثات تمكنهم من مواصلة تعليمهم الذي لا يقدرون على الحصول عليه لفقر اسرهم وعدم استطاعة اولياء امورهم ان ينفقوا على ابنائهم الكثيرين (المجموعة: ١١٢). ولا ينسى الكاتب في نفس القصة التي تعمل عنوان (الابواب المغلقة) أن ينتقد بعض جوانب الحياة التعليمية المتمثلة في عدم مراعاة واضعي الاسئلة لاوضاع الطلاب وظروفهم من ناحية، ولعدم انتظام الدراسة من ناحية ثانية (المجموعة: ١١٣). كما يعالج الكاتب في قصة اخرى من قصص هذه المرحلة، بعنوان (اجازة)، موضوعا اجتماعيا صرفا - اذا صح التعبير - وذلك حين تطرق الى علاقة الرجل بالمرأة في اطار الاسرة، متحدثا عن عدم التكافؤ بين أعباء الزوج الذي يعمل خارج البيت لمدة ثماني ساعات يعود بعدها منهكا مرهقا، وبين الزوجة التي لا تقوم الا بأعباء البيت، تتكثر شكوى الزوج، وتتوالى اتهاماته لها بالتقصير الذي تقابله الزوجة بالصمت والهدوء. ولا يغير هذا الوضع الا مرض الزوجة الذي اضطرها الى الدخول الى المستشفى،فيضطر الزوج الى الاعتناء بظلته (الهام)، الامر الذي يرهقه كثيرا ويجعل به الى ان يغدو شبه محطم، جسدا وفكرا وأعصابا، ولا يخرجه من معاناته الا عودة زوجته الى تحمل مسؤولياتها في البيت من جديد، ويكون هذا سببا كافيا لتغير سلوكه تجاه زوجته وتقديره لدورها في انجاز اعمالها المنزلية (المجموعة: ٩٣).

هذا على المستوى الفكري او الدلالي، اما على المستوى الفني التعبيري، فان الدارس لهذه المجموعة القصصية يلاحظ انه مثلما كانت ممثلة - بطريقة او بأخرى - لتطور فن القصة القصيرة في فلسطين منذ الخمسينيات من حيث تناولها لمضامين اجتماعية وانسانية ووطنية، فان بناها الفنية تمثل ايضا تطور البنى الفنية للقصة القصيرة الفلسطينية من بنى تقليدية ذات طابع سردي ومباشر وبسيط الى بنى اكثر تعقيدا من الناحية الفنية مع مرور الزمن. ففي القصص الاولى يغلب اسلوب السرد الذي يقوم على تتابع احداث القصة التي تتوارد على ذلك الراوي «وكأنها شريط سينمائي تتعاقب مشاهده حسب تسلسلها الزمني» كما في قصة (نهاية قصة) (المجموعة: ١٤). وهذا ما نراه ايضا في قصة (ذكريات الشاطىء) حيث يعود البطل بذاكرته الى الماضي فيتذكر ان محدثته هي سوسن الطالبة التي اعتاد ان يراها في يافا (المجموعة: ٥٣). أما راوي قصة (الام) فيشير الى ان احداث القصة تعود الى سنوات طويلة مضت (المجموعة: ٣٠). ولعل العودة الى الاحداث الماضية وروايتها في اطار قصصي جديد لا يتناقض - في مفهوم الكاتب - مع التأكيد على واقعية تلك الاحداث وبعدها عن الخيال، فالصبي الذي يصاب بالتهاب السحايا يصبح فيما بعد الطبيب (فتحي) ابن العم صالح الذي يسرد حكاية ابنه للراوي (المجموعة: ١٧ - ١٨)، وقارئة الكف التي يستمع الراوي الى قصتها من محدثه تصبح فيما بعد رئيسة للممرضات في المستشفى الذي ذهبا اليه لزيارة جار لهما مريض (المجموعة: ٦٤)، وأم عادل التي يروي صديق للراوي قصتها معروفة ايضا للراوي (المجموعة: ٣٤). وفي كل هذه المواقف يحرص الكاتب على أن يجعل من الراوي الثاني، اي الذي يمثله - على الدوام - صديق للراوي الاساسي في القصة، ماهرا ومتمكنا من اسلوب القص، بارعا في الحديث، مقتفا في طريقة سرده، يجيد رواية القصص والحكايات التي تزخر بها ذاكرته، بشكل مشوق يشد سامعه اليه (المجموعة: ١٨)، وهو يتعلم في براعة اطراف خيوط القصة ليضعها امام محدثه كما كتبتها الايام واخرجها القدر (المجموعة: ٢٩)، وهو يحسن انتقاء قصصه كما يجيد روايتها (المجموعة: ٥٦) ولعل اسلوب القص الذي اعتمده الكاتب في قصصه الاولى، وأعني به العودة الى الماضي لتوكيد واقعيتها وبعدها عن الخيال ينسجم مع ما ذهب اليه في مقدمته وكذلك في اشارته الى مجموعته الثانية من حيث انه يتحدث عن «احداث واقعية.. هي اغرب من كل خيال»، وهو ما عبر عنه، بوضوح شديد، في قصته (الام)، وذلك حين يورد على لسان راوي القصة، الذي اراد ان يتأكد من مدى صحة رواية جليسه، ويقطع الشك باليقين: «ان ما رويته لي لا يمكن ان يكون واقعيا!.. انه أشبه ما يكون بقصة خيالية تصلح للسينما او للروايات ؟!»، ولكن جليسه ومحدثه يرد عليه قائلا: «لا.. انها ليست قصة خيالية.. بل حقيقية.. مئة بالمئة!!.. وحتى ازيل كل شك من نفسك.. اقول لك انها قصة مستمدة من واقعنا.. اجل واقعنا الذي عشناه ونعيشه» (المجموعة: ٢٤)، وكأن التأكيد على واقعية القصة وحقيقتها شرط اساسي عند الكاتب لكتابة قصة جيدة يقدمها القاص الى قارئه. وليس يخفى ما في هذا الفهم من تضييق على الاديب المبدع الذي قد يجعل من الاحداث التي لم تقع، والتي هي محتملة الوقوع، احد مصادره الرئيسة في كتابة قصصه، وهذه قضية معروفة سبق وأن أثارها ارسطو الناقد اليوناني الشهير، ولو في سياق آخر وهو سياق حديثه عن فن الشعر، وذلك حين قال: «ان مهمة الشاعر الحقيقية ليست

Digitized by Birzeit University Library

في رواية الامور كما وقعت فعلا، بل رواية ما يمكن ان يقع» (٦).

ونحن نرى أن اتكاء الكاتب - بقوة - على ضرورة واقعية الاحداث مرتبط بطريقة ظاهرة بالرسالة التي يتوخى ايصالها الى قارئه، وخاصة في قصص المرحلة الاولى، وهي - في الغالب - رسالة اخلاقية وعظية تعليمية مباشرة، فالراوي في قصة (الام) يستنتج بعد ان سمع قصة ام عادل انه لن يكون نصيب ابنها العاق سوى الاشمئزاز والاحتقار (المجموعة: ٣٤)، ويتساءل فيما اذا كان القدر منصفا في حرمانه من الابناء، عقوبة له على عقوقه (المجموعة: ٣٥). ولعل في تعليق الراوي على قصة ام عادل الذي نصه: «ففي قصتها اكثر من عظة تستوقف المرء.. وتستحق التأمل!» (المجموعة: ٢٩) خير دليل على الرسالة الاخلاقية للقصة كما يراها الكاتب. ولا يخرج بطل قصة (آخر الشهر) عن هذا الفهم حين يصل الى حقيقة "ان الاقدار التي قد تسخو على المرء احيانا بالآمال العراض قد لا تتورع عن سلبه - في قسوة - كل هذه الآمال دفعة واحدة» (المجموعة: ٤٣). وقد بلغ الامر بالكاتب، وهو بصدد ايصال رسالته التعليمية المباشرة الى القارىء، أن جعل احدى قصصه، وهي (قارئة الكف)، دليلا على صحة مقولة محددة قدم بها لقصته تلك، وذلك حين قال: «رؤية الاشياء الصغيرة قد تغيب الزمان والمكان من حسابنا.. لتقودنا الى نبش الماضي.. لتضعنا وجها لوجه.. أمام أحداث قديمة.. مضى عليها سنوات طويلة!!..» (المجموعة: ٥٦)، وذلك حين جعل القصة كلها شكلا من اشكال تأكيد هذه المقولة وسبيلا الى التدليل على أهميتها.

ان هذه الروح التعليمية والاخلاقية البارزة التي تغلب على قصص الكاتب، وخاصة في المرحلة الاولى، تفسر - في حقيقة الامر ظاهرتين اخريين نلمحهما تتكرران في بعض تلك القصص:

اولاهما: ظاهرة النهايات المفاجئة التي يحس القارىء بأنها مقحمة على عالم القصة لدى الكاتب، وكأنه يقفز قفزا الى توصيل الرسالة التعليمية بوضوح، وهي ظاهرة نجدها في قصة (نهاية قصة) حيث يفاجئنا الكاتب بأن الصبي المريض مرضا خطيرا هو الطبيب فتحي، ابن العم صالح، وكذلك في قصة (السكرتيرة المطلوبة) حيث نعرف اخيرا ان الذي يجلس على مقعد ادارة الشركة امرأة وليس رجلا، وكذلك في قصة (الام) حيث نرى ان ام عادل هي ام محسن، صاحب الحفلة، وكذلك في قصة (قارئة الكف) حيث ندرك ان قارئة الكف هي رئيسة الممرضات في المستشفى.

وثانيتهما: ظاهرة التفاؤلية التي تنتهي بها معظم قصص الكاتب، لا فرق في ذلك بين قصص المرحلة الاولى وبين قصص المرحلة الثانية، وان كانت تفاؤلية المرحلة الثانية اكثر منطقية واقناعا. فعلى سبيل المثال، نرى ان تفاؤلية الام صالح في قصة (نهاية قصة) مرتبطة بايمانه العميق بالله وبرحمته. اما في قصص اخرى في المجموعة فنحن نجد تفاؤلية حالمة غير مبررة يسقطها الكاتب على احداث قصصه وعلى شخصياتها، كما هو الحال في خاتمة قصة (ذكريات الشاطىء) حيث يتساءل البطل قائلا: «هل نلتقي هناك ثانية.. على ارض يافا الحبيبة؟!» (المجموعة: ٥٣)، وكذلك في خاتمة قصة (شجرة العيد) حين يذهب الكاتب الى ان الطفلة الصغيرة «ادركت.. أن شجرة العيد - ككل الاماني الحبيبة - لا بد ان تنطلق يوما من عقالها.. لتنتصب شامخة في مكانها!.. لتعيد الى بيتها.. والى كل بيت.. بهجته وهناءه!!» (المجموعة: ٧٨). ويمكننا ان نسلك في مثل هذا النمط المثالي من التفاؤلية نهايات كل من القصص: (أمل) و (الابواب المغلقة) و (معا على الدرب) و (تستمر الحياة)، والى حد ما نهايات قصتي (نهاية الليل) و (من السارق). وهناك تفاؤلية اكثر منطقية نجدها في نهاية كل من قصتي (الصبي المطلوب) و (امنيته الصغيرة)، وذلك لكونهما تأتيان كنتيجة لفعل او موقف ايجابي فاعل صادر عن بطلي القصتين. ومن الطريف ان نلاحظ ان هذا الفعل الايجابي صادر عن شخصيتين تتميزان بأنهما طفلان صغيران، ولكنهما يرمزان - من غير شك - الى طاقات مستقبلية واعدة.

وعلى نفس المستوى الفني الاسلوبي، يمكننا ان نشير ايضا الى سمتين فنيتين اخريين تتمثلت اولاهما في قصص المرحلة الاولى اكثر من قصص المرحلة الثانية، بينما غلبت الثانية على قصص المرحلة الثانية، ونعني بهما غياب عنصر التكثيف والتركيز من ناحية، والميل نحو الايحاء والرمز، من ناحية ثانية.

اما فيما يتعلق بالسمة الاولى فنعني بها ظاهرة التراخي في الاطار الزماني للقصة، بحيث يتناول الكاتب احداثا متباعدة في الزمان قد لا يجمعها إلا رغبة الكاتب في حشدها بطريقة تراكمية تفتقر احيانا الى عامل الترابط او السببية. وربما كان هذا انعكاسا لاعتماد الكاتب على سرد احداث ماضية يجعلها محورا لكثير من قصصه. وفي قصص الكاتب اشارات غير قليلة إلى هذا الذي نعنيه بالتراخي في الزمان، فهو يقول: «ومرت الايام» (المجموعة: ١٦، ٣١، ٤٢، ٤٣) و «ذات يوم» (المجموعة: ٦٠) و «ذات صباح» (المجموعة: ٨٣) و «جاء يوم» (المجموعة: ٩٠) و «ثمر ايام» (المجموعة: ١٣٤). ولا شك ان مثل هذه الظاهرة تفقد القصص كثيرا من وحدة التأثير او الانطباع التي هي من السمات الهامة للقصة القصيرة.

Digitized by Birzeit University Library

أما السمة الثانية فهي لجوء الكاتب، وخاصة في القصص ذات المضامين الوطنية الى اسلوب هو اقرب الى الرمز والايحاء منها الى التقرير او المباشرة. وهو اسلوب لا يتحقق في كل القصص على نفس الدرجة من العمق والاتقان. ففي قصص مثل (ذكريات الشاطىء) و (أمنيته الصغيرة) و (شجرة العيد) و (الصبي المطلوب) يتسم الاسلوب برمزية قريبة شفافة يمكن بسهولة تحديد ما تعنيه او ترمز اليه. اما في قصة (معا على الدرب)، فان الرمز اكثر عمقا وتعقيدا، لانه يستند على اكثر من رکيزة، فهناك اولا شيء من الغموض الذي يكتنف شخصية البطل الذي يعتمد الكاتب في تصويره على ابعاد تاريخية واخرى دينية متمثلة في شخصية السيد المسيح الذي يبعثه الكاتب من جديد في شكل شعب من آلاف الذين يجيئون من كل حدب وصوب، ممتلئين بالايمان، ورافعين أغصان الزيتون، رمز السلام (المجموعة: ١٣٤). وهناك ثانيا اسلوب تصويري يعتمد على الحوار الذي يقتبس في بعض المواقف آيات من الانجيل، وكلمات أغنيات محددة. وهناك ثالثا غلبة اجواء جماعية تعتمد على تعدد الشخصيات والاحداث والاصوات. وهناك رابعا واخيرا انتفاء الحدود بين الرمز والمرموز اليه، بحيث يندغم الماضي بالحاضر في عملية تواصل بين الواقع والرمز، وبين التاريخ واللحظة الراهنة. من أجل هذا كله، فان قصة (معا على الدرب) تبدو مختلفة الى حد كبير عن بقية قصص المجموعة، وخاصة على المستويين الرمزي والفني.

على أننا نحب، قبل ان ننتهي من تحليلنا لمجموعة «وتستمر الحياة» للقاص يعقوب الاطرش، أن نشير الى ظاهرة أسلوبية لافتة للنظر، نرى أنها جديرة بالاهتمام، ونعني بها هذا التجانس في لغة القص لدى الكاتب في قصصه كلها، قديمها وحديثها، على الرغم من طول مسيرته القصصية. وهنا نحب - ايضا - ان نتساءل: كيف يمكن تفسير مثل هذه الظاهرة؟

هل نقول انه يبدو ان الكاتب، في كل مرة عمل فيها على اعادة نشر بعض قصصه، كان يعمد الى مراجعة قصصه واعادة صياغة ما يشعر بأنه بحاجة الى ذلك؟

أم هل نقول ان الكاتب الذي يقرر في مقدمة المجموعة حقيقة مفادها وأن ما نشر هنا لا يمثل الا جانبا من انتاجه القصصي.. في هذه الفترة الزمنية» (المقدمة: ١٠) كان حريصا على أن يختار من القصص ما تجانست لغته القصصية؟

أم نقول انه من الجائز أن لغة الكاتب لم تتغير تغيرا ملحوظا على مدى اكثر من ثلاثين عاما؟ ونحن نعلم ان بعض القصص قد كتب ليذاع، وان بعضها الاخر كتب لينشر فيقرأ، وان منها ايضا ما أذيع ثم نشر؟

وانا كان علينا ان نجيب عن كل هذه الاسئلة، فاننا نرى ان احتواء هذه المجموعة على قصص متباعدة في الزمن، تشكل جزءا من انتاج الكاتب القصصي، وحرصه على أن لا يضمنها قصصا كتبها بعد الانتفاضة، ومحاولته تقديم بعض الملاحظات في المقدمة، والتي من شأنها ان تلقي ضوءا على قصص مجموعته، يمكن ان يشكل كل ذلك مدخلا مناسبا للاجابة عن كل التساؤلات السابقة.

هوامش

١) كنت قد فرغت من كتابة مسودة هذه المقالة قبل نشوب ما سمي «بحرب الخليج»، ثم انشغلت عنها منذ ذلك الحين الى ان عدت اليها من فترة وجيزة. وكنت قد اطلعت على «قراءة» لها للسيد من مجلة الكاتب، نيسان وأيار ١٩٩١ (الصفحات ٣٧-٤١ و ٣٤-٣٨). كما اطلعت على «ملاحظات على مقالة خالد البطراوي حول مجموعتي القصصية «وتستمر الحياة» للكاتب يعقوب الاطرش نفسه في العدد ١٢٣ من مجلة الكاتب، حزيران ١٩٩١ (٣٨ - ٤٣). كما وعقدت ندوة في اتحاد الكتاب الفلسطينيين يوم السبت ١٩٩١/٥/١٢، لمناقشة المجموعة كنت احد الشاركين فيها. وقد حرصت على أن تكون هذه المقالة في صورتها النهائية مثلما كانت تماما في السودة، وان تنأى عن كل ما أثير حول هذه المجموعة.

٢) صدرت للكاتب يعقوب الاطرش مجموعة قصصية ثانية بعنوان:

«حمام الربوع»، عن دار فلسطين للنشر، القدس، ايلول ١٩٩٠.

٣) في آخر صفحة من مجموعته القصصية: «وتستمر الحياة»، وتحت عنوان: تحت الاعداد، يشير الكاتب الى «مجموعة قصص وحكايات.. ممتزجة من صميم الواقع.. في عهد الانتفاضة.. وخلال حملة حمار ومدامات.. استمرت ٤٣ يوما.. على بلدة صغيرة صامدة.. حيث تعرض الكثيرون.. ومن ضمنهم المؤلف.. للاعتقال، والمداهمة، وحجز الاموال.. احداث واقعية.. في اغرب من كل خيال!!!».

٤) هاشم ياغي: «القصة القصيرة في فلسطين والاردن ١٨٥٠ - ١٩٦٥»، القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٦، ص:١٦٧.

٥) قصة (السكرتيرة المطلوبة) اذيعت من اذاعة القدس العربية برام الله بتاريخ ١٩٥٦/٨/٩، ثم نشرت في العدد ٦٢ من مجلة الاسرة في عمان في شهر آب ١٩٨٧، ثم نشرت في جريدة القدس حديثا، كذلك قصة (الام)، فقد كتبت عام ١٩٨٧، ثم اعيدت اذاعتها ١٩٦٧، اما قصة (شجرة العيد) فقد نشرت في جريدة الشعب عام ١٩٧٢ ثم في مجلة الشراع سنة ١٩٨٢. وكذلك قصة (اجازة) التي كتبت عام ١٩٧٢ ثم نشرت في مجلة عبير عام ١٩٨٦. أما قصة (نهاية الليل) فقد كتبت عام ١٩٧٥، ثم اعيد نشرها في البيادر الأدبي عام ١٩٧٨.

٦) ارسطو طاليس: «فن الشعر». ترجمة عبد الرحمن بدوي، بيروت: دار الثقافة، (بدون تاريخ) ص: ٣٦.

Digitized by Birzeit University Library

(٢)

الفن المسيحي وأنتشاره

فاطمة المحب

عندما اعتنق امبراطور الرومان قسطنطين الديانة المسيحية سنة ٣٣٠ ميلادية انتهى العهد الوثني ولقد رفع الاضطهاد عن المسيحيين وجعل الدين المسيحي هو دين الدولة الرسمي وأسس على أنقاض مدينة بيزنطة الوثنية عاصمة جديدة له سماها باسمه القسطنطينية واتخذها مقرا لدولته وبذلك ضعف الاشراف على الجهات الغربية من الدولة الرومانية. لقد شيدت الكنائس في ذلك الوقت في عدة مدن مثل القسطنطينية، وروما، والقدس وكان اسمها أوروشليم، وأنطاكيا وفي مدن غير ذلك أيضا.

الفن البيزنطي

ان الفن الذي بدأ في الدولة البيزنطية أي الرومانية المسيحية الشرقية سمي بالفن البيزنطي وكان مقتبسا من الفن الاغريقي والروماني مع بعض التغيير أو الاضافة لما يناسب الديانة المسيحية وشعائرها. فبنيت الكنائس في عدة مدن ولقد اقتبسوا هندسة الباسيليكا وهي أبنية رومانية كانت تستعمل لدور القضاء، وتمتاز الكنائس المسيحية البيزنطية بقاعدة على شكل الصليب وأحيانا تكون مربعة يعلوها قبة أو أكثر تزينها الفسيفساء، أما الجدران فيزينها الرخام أو الحفر البارز أو الفسيفساء أو التصاوير الملونة عن حياة السيد المسيح وفي الكنائس توجد المحاريب والمنابر. أما التصاوير البيزنطية فقد كانت بعيدة عن الطبيعة وفيها جمود ويكثر فيها الاصطلاح مثلا يضعون هالة مذهبة حول رأس القديس أما الاعمدة البيزنطية فكانت رائعة، تيجانها مزخرفة بزخرفة نباتية أو هندسية وكذلك

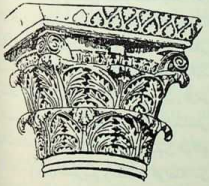

تاج عمود بيزنطي

قواعدها.

ولقد أثرت أساليب الفن البيزنطي على فن الدولة الرومانية الغربية في روما، ثم تطور الامر فصاروا يبنون الكنائس على قاعدة مستديرة أو مثمنة ومثال على ذلك كنيسة (أيا صوفيا) التي بنيت في عهد جوستانيان في القسطنطينية فكانت رائعة

Digitized by Birzeit University Library

ومثالا يحتذى في أوروبا وفي روسيا وهكذا أنجبت كنائس عدة في أوروبا، وكذلك نشطت المخطوطات وهي الكتب التي تروي حياة السيد المسيح والقديس والقسس وكانت تزين برسوم توضيحية ملونة جميلة، وهكذا أخذ الفن البيزنطي ينتقل تأثيره من بلد الى آخر.

الفن القبطي

عندما دخل الاقباط في مصر في الديانة المسيحية اخذوا في بناء الكنائس وكان للفن البيزنطي أثر عليها مع أثر الفن الفرعوني وفنون آسيا أيضا، كانت كنائسهم تعادها على شكل الصليب تعلوها القباب وفيها الهياكل والمحاريب والمنابر والاعمدة الكثيرة وتزين الجدران بصور القديسين وغالبا ما تكون هذه الصور بالحجم الطبيعي، ولكن الرسم عندهم كان جامدا مثل البيزنطي وبعيدا عن الطبيعة ويكثر فيه الاصطلاح.

لكنهم لم يدخلوا التماثيل الى كنائسهم ذلك لأمر يتعلق بمذهبهم الديني، لقد ترجم رهبانهم الانجيل الى اللغة القبطية وحسنوا صناعة الورق والكتابة.

الفن القوطي

لقد انتشر الفن البيزنطي في كنائس أوروبا مع تعديل في الزخرفة وكان يسمى في ذلك الوقت الفن الرمانسكي. ثم تطور هذا مع الوقت الى نمط سمي الفن القوطي ولقد شمل كل اوروبا، لقد بدأ هذا الفن القوطي في فرنسا ونشط ومنها انتقل الى البلاد الاخرى المجاوره ما عدا ايطاليا التي لم يعجبها أما خصائص الفن القوطي فهي، الارتفاع الشامخ، والسقف الحدباء والنوافذ الواسعة التي شاعفت من ضوء الكنائس

عمود قوطي

وكذلك واجهات الكنائس كانت تزينها الابراج والشرفات والمداخل كانت تحليها التماثيل للقديسين أما طرقاتها فيفصل بعضها عن بعض الاعمدة والتي تيجانها وقواعدها مزخرفة بأوراق النبات.

لقد أتجهت العناية بتحلية النوافذ بالزجاج الملون المؤلف بالرصاص. وكان يصور مشاهد دينية رائعة فتجد النور يدخل فيها ملونا رائعا. كذلك ازدهرت في الفن القوطي المخطوطات بتصاويرها الملونة التي تروي القصص الدينية.

زخرفة قوطية

لقد كانت الزعامة لفرنسا في الفن القوطي ثم نجدها انتقلت الى انجلترا فبنى الانكليز على الطراز القوطي كتدرائية كنتر باري، ثم انتقل هذا الطراز الى ألمانيا وكان لفن الزجاج الملون المؤلف بالرصاص شأن كبير فيها، أما الاسبان فقد أخذوا هذا الفن عن فرنسا وأحضروا فنيين ألمان ليعملوا في بلادهم، وهكذا انتشر في كل اوروبا، ما عدا ايطاليا التي رفضته ووجدت في استعماله قضاء على فنها المحلي. ان الايطاليين لم يهتموا بالزجاج الملون ولا بالزخرفة القوطية بل كان كل اهتمامهم بالرسم وعمل لوحات ملونة تحكي قصة المسيح وأصحابه وذلك على جدران الكنائس وقبابها بشكل لم يسبق له مثيل.

عهد الاحياء الايطالي

اصطلح المؤرخون على تسمية القرون التي سبقت عصر الاحياء الاوروبي بالقرون الوسطى تارة وبالظلمة أخرى وذلك لأن أوروبا في ذلك الوقت كانت غارقة في لجج النضال السياسي والديني والاجتماعي تحاول كل دولة أن تجد قوميتها وفي هذه الحال لم تزدهر الفنون، أما في القرن الرابع عشر الميلادي فقد أزيل الغبار عن الآثار الرومانية مما كان له أكبر الاثر في إثارة المواهب لاحياء تراث السلف المجيد واستعارة قواعده الفنية لخدمة الاغراض الجديدة، وبذلك كان بزوغ عهد النهضة، كما أن نزوح العلماء الى ايطاليا من القسطنطينية وذلك بعد سقوطها والدولة الرومانية الشرقية البيزنطية في أيدي الاتراك العثمانيين سنة ١٤٥٣ ميلادية كذلك ما احدثه أدباء ايطاليا مثل دانتي وغيره من إثارة الاعجاب بالادب الروماني والاغريقي مما حفز الفنيين على استخراج مواضيع منها لتصويرها فتحرر الفن بذلك من مصطلحات النفوذ الكنائسي.

التصوير الايطالي

Digitized by Birzeit University Library

لقد هب التصوير من سباته على يد جيوتو متحررا مما كان يقيده من مصطلحات فكان بدء العصر الذي اهتم بالمنظور (أي ظهور الاشياء على البعد أصغر فأصغر) وكذلك اهتموا في الرسم بتنسيق المجموعات ونسبة الجسم وتوضيح العواطف وتعبير الوجه. لقد كان أمراء آل مديتشي يولون الفنانين بالعناية كما كان في مدينة فلورنس فازدهر الفن فيها وتسربت تعاليمه الى البندقية وروما. لقد أصاب التصوير في روما نجاحا باهرا في عهد البابا يوليوس الثاني عشر وغيره من البابوات ومن الفنانين العظام في ذلك الوقت مليكل أنجيلو ورفائيل وليوناردو دافينشي درس هؤلاء آثار القدماء ودرسوا الطبيعة وهكذا تقلدت ايطاليا زعامة الفن العالمية. وبذلك قضي على الفن القوطي وأخذ الفن الايطالي في الانتشار في اوروبا.

لقد امتاز هذا العصر بأعمال عظيمة في الرسم التصويري وخاصة الافرسك (أي التلوين والرسم على القصارة وهي رطبة) وكذلك بألوان الزيت لوحات طبقت شهدتها

الرحمة/نحت مايكل انجلو

الآفاق كثرت في ايطاليا الكنائس والابراج والاديرة والقصور وأمتلأت ساحاتها

لوحة (موناليزا) في متحف اللوفر في فرنسا رسم ليوناردو دافنشي/ايطاليا. القرن السادس عشر.

بالتماثيل وداخلها بالصور الرائعة على أيدي العباقرة مثل صورة الحساب وتمثال داود وموسى والرحمة وغيرها لمايكل انجيلو، أما ليوناردو فقد رسم صورة لحسناء نظرتها حزينة وابتسامتها غامضة والصورة للآن في متحف اللوفر في فرنسا، واسم اللوحة مونا ليزا - أما رفائيل فأعماله في التصوير كثيرة رائعة ومنها ما يزين قصر الفاتيكان في ايطاليا، وكان كذلك غير هؤلاء من الفنانين الذين زينوا اقسام من الفاتيكان وقاعاته وبذلك كان عصر النهضة الايطالي أسعد فترات التاريخ العالمي. لقد كان البابوات الى جانب مركزهم الديني حكاما وشدة تعلقهم بالفن ساعد على ازدهاره.

أما الى جانب التصوير فقد اهتموا بالأعمدة وزخرفوا تيجانها وقواعدها، واستعملوا الفسيفساء والحفر البارز والوحدات الزخرفية النباتية والهندسية وصور الانسان والحيوان وتصوير الاساطير واستعمال الالوان المركبة الجميلة والالوان الزيتية.

عهد الباروك

بعد عصر مايكل أنجيلو ورفائيل وليوناردو لم يصل الفنانون الى مستواهم في التفوق لذلك لجأوا الى الاكثار من الزخرفة مما أبعد عملهم عن الفن الاصيل وقد سمي هذا النمط الفني الباروك (ومعناها الشاذ) وهكذا انتقل هذا الى أوروبا في عهد البابا أوربانو الثامن فرجعت واصطبغت رسومهم بالاصطلاح.

عهد الاحياء الفرنسي

في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تغلب الفن الايطالي على القوطي في فرنسا لقد نزح عدد من الفنانين الايطاليين للعمل في فرنسا في عهد الملك فرنسوا الاول بدعوة منه وتتلمذ على ايديهم الفرنسيون.

وبذلك ظهر في فرنسا نمط يشبه الباروك ولكنهم سموه الروكوكو في زخرفة الكنائس والابنية.

أما في التصوير فقد عمل ليوناردو وغيره في فرنسا مما جعل الفرنسيين يرون الفارق الكبير بين عملهم وعمل هؤلاء العباقرة، ثم ما لبث أن ظهر في فرنسا فنانون كبار وهكذا قضي على الفن القوطي.

لقد أعجب ملوك فرنسا بالباروك الذي سموه الروكوكو ومن تلك الابنية قصر اللوفر وقصر فرساي وكنيسة السوربون وذلك في عهد لويس الثالث عشر والرابع عشر أما في عهد لويس الخامس عشر فقد بلغ الروكوكو أوجه وذلك لحب الملوك بالترف والبذخ لقد ظهرت منذ أواخر القرن الثامن عشر في فرنسا نهضة عظيمة في

Digitized by Birzeit University Library

التصوير فلم يكونوا تحت نفوذ الكنيسة بل رسموا الطبقات الفقيرة ومشاهد الطبيعة والحياة العامة في فرنسا الى جانب رسم الملوك فيها.

عهد الاحياء الانكليزي

عندما استدعى ملوك الانكليز الفنانين الايطاليين للعمل في بلادهم دخل الفن الايطالي الى انجلترا لذلك أثر فن الباروك الايطالي هناك على العمارة وكذلك وجود الايطاليين تسبب في نهضة فن الرسم الانكليزي وايجاد فنانين منهم.

عهد الاحياء الالماني

ما لبث أن تسلل الفن الايطالي الى المانيا عن طريق فرنسا وساعد وجود الفنانين الايطاليين للعمل في ألمانيا على نهضة الفن فيها في العمارة وفي فن التصوير.

العذراء وابنها المسيح/رسم رفائيل

الاراضي المنخفضة

وفي هولندا وبلجيكا فقد تأثروا أيضا بالفن الايطالي، وقد ذهب بعض فنانيهم الى ايطاليا لتلقي الفن فيها ثم عادوا لبلادهم فنهضوا بالفن.

عهد الاحياء الاسباني

كان لسقوط دولة المسلمين الاموية في اسبانيا أثر كبير وكذلك لاكتشاف العالم الجديد اي اميركا في اواخر القرن الخامس عشر حيث نشطوا في بناء الكنائس وزخرفتها ولقد عمل الفنانون الالمان والفلمنكيون في اسبانيا وسمي ذلك النمط الفني فن الصناعة لدقته. ولكن الاسبان استعملوا الفن القوطي والاسلامي الاندلسي العربي في بلادهم، كما ان العرب نزحوا من اسبانيا للعمل في المانيا وفرنسا فتأثر الفن هناك بفنهم العربي وهكذا ترى التيارات المختلفة في اوروبا.

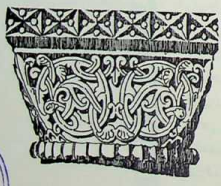

تاج عمود رومانسكي

Digitized by Birzeit University Library

بين السيناريو والمونتاج :

ضاع الممثلون الفلسطينيون وضاعت قضيتهم

يعقوب اسماعيل

للسينما لغة خاصة وادوات مختلفة كما لباقي اشكال الفنون الاخرى، وفي السينما خاصة تبرز حساسية وخطورة استخدام ادوات وعناصر وتكوين وبناء هذه اللغة، ونحن وبصدد مناقشة هذا الفيلم سوف نحاول اولا تتبع بعض هذه العناصر والنقاط التي تشكل جزءا من هذا التكوين والبناء هذا من جانب، ومن جانب أخر - وبما ان الفيلم يحاول طرح قضية الفلسطيني والاسرائيلي - سوف نحاول ان نستعرض في مقارنة سريعة هذه النقاط كما جاءت بالفيلم لتظهر لنا شخصية الاسرائيلي، وشخصية الفلسطيني، لاستخلاص العبرة في النهاية عما يريد الفيلم قوله وأظهاره.

- الدم وسيكولوجيا اللون

لقد تم استغلال مناظر الدم وابرازه بشكل مؤثر وحاد، لما هو معروف من مدى تأثير الدم على المشاهد واثارة مشاعر حادة في داخل نفسه سواء على صعيد ما يعنيه الدم بالنسبة للانسان، او على صعيد سيكولوجية لون الدم الاحمر وأثره على النفس البشرية، المشاهد للفيلم يرى مدى الخبث الذي تعامل به المخرج الاسرائيلي مع مسألة الدم. وعلى مدى الفيلم يظهر دائما الدم الاسرائيلي فهو يظهره في لقطة سينمائية واضحة من ناحية الكادر والزمن، فها هو ومنذ مشهد تفجير العربة الاسرائيلية يطل علينا بمشهد الجنود المقتولين ودمهم السائل من اجسادهم المهشمة، ليرينا بشاعة الموقف كله. وها هو يعود في المشهد اللاحق في المخيم ليرينا وبكل وضوح وتركيز دماء الاسيرين وهم مقيدين، ويضيف قسوة اخرى «جليلي» بأن يجعل الفلسطيني يضرب الاسرى الجرحى على مواقع الدم والجروح.

وها هو الدم الاسرائيلي واضحا كل الوضوح حتى يكاد ينطق في مشهد مقتل

في اوائل الشهر الماضي، وضمن فعاليات مهرجان القدس الاسرائيلي السينمائي، عرض في -سينما تك- في القدس الفيلم الاسرائيلي، «الكأس النهائي»، والذي شارك في التمثيل به، نخبة -لا بأس بها- من الممثلين الفلسطينيين -المزدوجي الجنسية- أمثال محمد البكري وسليم ضو ويوسف ابو وردة وبسام زعمط وغسان عباس وآخرون.

تدور احداث الفيلم أثناء عملية الاجتياح الاسرائيلي للبنان في العام ١٩٨٢، حيث تقوم مجموعة من المقاومة الفلسطينية بأسر اثنين من الجنود الاسرائيليين، وتعمل طوال احداث الفيلم على ايمالهم لبيروت على امل استغلالهما في صفقة لمبادلة الاسرى، ولكنها لا تنجح في ذلك، حيث يقتل افراد هذه المجموعة على حاجز للقوات الاسرائيلية على مشارف بيروت، ويتم بذلك افشال العملية وتحرير الجندي الاسرائيلي الاسير والوحيد المتبقي بعد ان قتل صاحبه الأخر بعد بداية العملية بقليل.

Digitized by Birzeit University Library

يوسف ابو وردة، محمد بكري، سليم ضو، الاسير الاسرائيلي (موشيه ايجبي) سهيل حداد وغسان عباس

«جليل» - الاسير الآخر - فلقد تناثر دمه على جسمه والجدار، ثم يتوج كل ذلك في عملية التعذيب البشعة والصاخبة، والتي يقوم بها (شكري) ضد (كوهين) في الحمام حيث لا يكتف الفلسطيني بافراغ رأس الاسرائيلي في المرحاض وانما يدق رأسه عدة مرات في الجدار، وهنا طبعا لا يفوت الكاميرا ان تركز عدستها وفي لقطة خاصة على بقعة الدم الحمراء الناتجة على جدار الحمام الناصع البياض.

كل هذا الدم الاسرائيلي رأيناه بشكل واضح ومركز وفي مواقف درامية ممهدة لهذه اللقطات، لترينا كم هو متعطشا للدم ذلك الفلسطيني!.

وفي المقابل ورغم مقتل الفلسطينيين جميعهم -ما عدا شكري المتطرف- لم يعلق او يتبق في ذاكرة المشاهد اية صورة او اي اثر للدم الفلسطيني، لأننا وببساطة لم نشاهده في الفيلم وان مرّ فانما مرور الكرام كرمشه عين.

الموت

الموت البطولي الاسرائيلي والعبثي الانتحاري الفلسطيني.

يأخذ الفيلم خطا خفيا خبيثا آخر في عرضه لكيفية موت الشخصيات وجدوى هذا الموت.

الموت الاسرائيلي:

- الموت نراه اول مرة حين تتفجر الدورية، اذن فالجنود الاسرائيليين قد قتلوا في كمين وليس مواجهة، وقد قتلوا اثناء قيامهم بمهام عسكرية في عملية الاجتياح لتنظيف لبنان من «الارهابيين» الفلسطينيين.

- الموت الثاني للاسرائيلي حين قتل «جليلي» وهو الاسير الثاني، وذلك في محاولة «بطولية» للهرب من الاسر وسط اشتباك بين المجموعة وقوات الجيش الاسرائيلي، وقد قتل وبصورة واضحة -للذي يعي اللغة السينمائية، وللذي يريد ان يفهم ايضا- على يد أحد افراد المجموعة وهو «شكري المتطرف» ولا مجال هنا للالتباس والذي فهمه او اراد ان يفهمه بعض النقاد الذين تحدثوا او كتبوا عن الفيلم ومن ضمنهم «اميل حبيبي» والذي نشر اعلانا دعائيا للفيلم واصحابه من اليهود والعرب وذلك من مقالة في جريدة القدس ٧/٢٣ والذي سنتطرق له في هذا المقال.

ويتجسد هنا مفهوم «البطولة» من خلال الجرأة في محاولة الهرب اولا والناحية الرمزية في كونه مات جالسا ورأسه واقفا وظهره مستندا للجدار في شوخ واباء.

موت الفلسطيني

اما اندفاعا

(خليل) - الفرد الاول من المجموعة وهو شاب حاقد ومندفع -طبعا دون ان يوضح لنا الفيلم لماذا، وما هي دوافعه، كواقع الحال مع باقي الشخصيات- يقتل على يد الدورية الاسرائيلية حينما يبعثه قائد المجموعة (زياد) في الكشف وراء (خليلي) بعد ان قضى حاجته في الخلاء امام البيت المهجور بينما كانت الدورية على مقربة من البيت ولم ينتبه اليها احد من المجموعة!.

واما سهوا وعدم حرص وخطأ من القائد

(فتحي) - ذلك الشاب المريض والضعيف البنية - يركض وبعد اشارة ايضا من القائد لاحضار الكرة والتي تستقر فوق لغم ارضي، يتفجر به اللغم ولا ينتبه القائد لذلك الا بعد فوات الاوان. رغم اشارات التحذير المنصوبة والواضحة والتي تشير لوجود هذا اللغم!.

واما تصفية داخلية

(الدكتور - عمر) - صاحب الخطب الديماغوجية الرنانة والذي يعد بتحرير فلسطين من النهر الى البحر- حيث يقتل برصاصة وسط جبينه وبطريقة مفاجئة صدمت المشاهدين (لقد سمح المخرج لنفسه هذه المرة بالتركيز على الجبين المخروق واظهار الدم الفلسطيني!) ولم يعرف قاتله، ولكن ظهر وبشكل واضح انه لم يقتل بايد اسرائيلية اذ لم يظهر اي اثر للجنود، اذن لقد كانت عملية اغتيال وتصفية داخلية من فلسطيني مختبىء.

واما غباء وضعفا عسكريا

(ابو عياش) عندما وصلت المجموعة مشارف بيروت وحاولت اجتياز الشارع بالقرب من الحاجز الاسرائيلي ومن منطقة مكشوفة، فتح الجنود النار على ابو عياش ولم يجدوا صعوبة في اصطياده!.

واما انتحارا ساذجا

(موسى وجورج) - عند مقتل (ابو عياش) لم يتمالك (موسى وجورج) نفسيهما وخرجا من وراء متراسهما ضاربين بعرض الحائط

Digitized by Birzeit University Library

هدف مهمتهما الاساسية وهي ايصال الاسير لبيروت، خرجا بكل سذاجة بعد كل المعاناة والعناء الذي واجهها طوال رحلتهم الصعبة من الجنوب، ولم يتبق امامهم سوى اجتياز هذه المرحلة الاخيرة خرجا بكل هذه السذاجة، كاشفين انفسهم وفاتحين صدورهم هدفا سهلا لرصاص الجنود الذين بالطبع فتحوا النار في «معركة نظيفة» مقابل رصاصات (موسى وجورج)!.

واما انتحارا رومانسيا بلا مقابل

(زياد) وهو قائد المجموعة والمتبقي الوحيد مع الاسير، حيث كان بامكانه الهرب والمحافظة على الاسير او الاختماء والتهديد به، ولكنه اي هذا القائد اندفع للشارع صائحا وبصوت رومانسي (ابو عياش) ليقدم نفسه لقمة سائغة لرصاص الجنود وبلا اي مقابل!

كل هذا عن كيفية موت الشخصيات في الفيلم، جاء ليعبر عن ان للموت الاسرائيلي جدوى وطريقة بطولية ومشرفة فهو يموت في مهمة. بعكس الفلسطيني الذي لا جدوى من موته فهو يموت إما اندفاعا بلا تخطيط، او لعدم حرص وخطأ من من القائد او على يد فلسطيني آخر او يموت سهوا وغباءا وانتحارا عبثيًا مشبعا بعاطفة وسذاجة لا يغني ولا يسمن من جوع!.

الشخصية

شخصية الاسرائيلي

ظهرت شخصية الاسرائيلي بصورة واضحة ومبررة لها واقعها وتاريخها واسبابها ودوافعها، كذلك قدمت هذه الشخصية بصورة المواطن العادي والذي شاءت الظروف والاقدار وعن طريق الصدفة البحتة ان يزج في هذه الحرب بينما هو يحضر نفسه وتذاكره للذهاب لمباريات كرة القدم، اي ان الحياة بالنسبة لهذه الشخصية يجب ان تكون بلا حروب وصراعات وان كان ولا بد من الصراع، فيجب حله بصورة حضارية رياضية بحتة، ولهذه الشخصية توجد عائلة وعمل وحب ونكتة وبساطة، وليس عبثًا ان يأخذ خط اداء هذه الشخصية خطا كوميديا محببا وبسيطا.

شخصية الفلسطيني

وفي المقابل جاءت الشخصية الفلسطينية في الغالب فجائية وبدون مقدمات كافية تتيح لنا فهمها، لفهم سبب ودوافع وجودها ومنطقها وانعالها، شخصية، تحمل السلاح وتقتل وتأسر وتحارب، دون قضية واضحة ودون ان نفهم، كيف، واين، ومتى، ومن ولماذا ... الخ.

والذي فهمته من بعض الممثلين المشاركين بالفيلم انه قد تم تلاعب كبير في عملية المونتاج، بحيث لم يظهر الفيلم، كما كان

الاسيران (شارون الكسندر وموشيه ايجبي)

مقررا ومعدا في السيناريو الاصلي والمتفق عليه، حيث تم حذف مقاطع ولقطات كثيرة متعلقة بالشخصيات الفلسطينية، والتي كانت تعطي عمق وتوضيح ودوافع انسانية لهذه الشخصيات وتعطيها سببا كافيا لوضعها الحالي، وتلقي الضوء على قضيتها الانسانية والوطنية، وتبرر سبب انضمامها الى صفوف المقاومة، ومع حذف هذه المشاهد واللقطات، بقيت الشخصيات الفلسطينية باهتة في غالب الاحيان ومجردة من ماضيها وتاريخها ودوافعها واسبابها، بقيت وحيدة في مواجهة حكم المشاهدين كل حسب تخيلاته وتصوراته وافكاره المسبقة عن الفلسطينيين وبقيت المشاهد التي تظهر الجانب الدموي العنيف والشرس لهذه الشخصيات، لتطفى على بقايا انسانية عندها، ولتنطبع في ذهن المشاهد بتأثير اشد. فان تعطي للاسير نصف ليمونة مثلا -سلوك انساني طيب- لكن هذا السلوك لن تستطيع ان تواجه به اثرا معاكسا في ان تغرق وجه الاسير في المرحاض او ان تدق رأسه بالحائط، او ان تضربه وهو مكتوف الايدي ودمائه تنزف من جروحه، وان تضربه على نفس تلك الجروح - سلوك انساني عنيف وشرير - هنا تكمن خطورة استخدام عناصر اللغة السينمائية، فاللقطة العنيفة والدموية هي التي تترك الاثر الاقوى والاشد وهي بالتالي التي تنطبع لتبقى مع المشاهد بعد نهاية العرض ، اذا لم يقابلها لقطات اخرى تبرز الناحية الانسانية الايجابية المعاكسة لها بالاتجاه والمساوية لها بالقوة.

الامل

كان هدف المجموعة الفلسطينية الاساسي والوحيد من عملية اسر الجنود الاسرائيليين هو ايصالهم الى بيروت على امل عقد صفقة

Digitized by Birzeit University Library

تبادل اسرى، ومن بداية الاحداث يحاول، الفيلم ان يقول ان لا امل للفلسطينيين، وانهم لن ينجحوا في هذه المهمة، وسط هذا الحشد الهائل للقوات الاسرائيلية في لبنان، هذا ما قاله (كوهين) بوضوح عدة مرات للمجموعة وهو يقنعهم بتركه لاخلاء سبيله وان يهربوا بجلدهم، وحتى في اللعب كما حصل في لعبة البلياردو، لا امل للفلسطيني، فها هو المخرج يوزع كرات البلياردو على اللاعبين، وفق مزاجه الخاص وها هو يعطي الكرة السوداء الرئيسية في هذه اللعبة- القدس- للاسرائيلي، الذي يأخذها عن مهارة وجدارة واستحقاق، وعن قوة وثقة مطلقتين. وبالطبع لا اظنك ان المخرج او اي احد سواه لا يدرك المغزى والرمز التاريخي والحضاري والقومي والديني لهذه المدينة، فان هي راحت للاسرائيلي فماذا تبقى لزياد ومجموعته من أمل؟! وتبقى اللعبة حتى تصل المجموعة الى مشارف بيروت، لتجد بيروت محاصرة والجنود الاسرائيليين في انتظارهم، حيث يفقدون كل شيء ولا يبقى لقائد المجموعة «زياد» سوى ان يكتف بطلب سيجارة وهو في الرمق الاخير، وحتى هذه لا يحصل عليها، والفكرة هنا واضحة جدا لا امل لكم ... لا تتعبوا انفسكم ... كل جهودكم ضائعة عبثا .. وبلا جدوى .. لن تحصلوا على أي شيء.

لمن النصر ..؟

للنصر اسباب، واهم اسبابه القوة، وبنية شخصية الفلسطيني كما عرضها الفيلم ضعيفة، وللاسرائيلي قوية قضية الاسرائيلي واضحة وقوية، وقضية الفلسطيني ضعيفة وشبه غائبة، القوة العسكرية قوة جيش قوي ومنظم بالنسبة للاسرائيلي، وللفلسطيني هي اقرب ما تكون لعصابة مندفعة عاطفية ضعيفة التخطيط والحرص وتقدير الامور.

وفي حين ان الفيلم وكما جاء على ملصق الفيلم، وكما كان مكتوب في السيناريو اصلا، يدعي انه يريد القول بان لا فائز في هذه الحرب، فانه عمليا قد حقق عكس ذلك تماما حين هزم الفلسطيني دون تحقيق هدفه الرئيسي بايصال الاسير ومن ثم ان يحصل حتى على سيجارته الاخيرة، ودون ان يدخل بيروت منتصرا، ودون حتى ان يبقى على قيد الحياة، بينما يبقى الاسرائيلي لينضم الى الجيش المحاصر لبيروت.

وتنقلب الاية، ويتحول الاسير الى محاصر -بكسر الصاد- وكأنما كانت مهمة المجموعة وهدفها الاساسي ايصالة الى بيروت ليحاصرها! الخاسر هو الفلسطيني والمنتصر هو الاسرائيلي والمباراة انتهت في الشوط الاول.

الكأس للاسرائيلي ... والموت للفلسطيني.

بنتيجة مليون - صفر

المباراة تمت على ملعب السينما الاسرائيلية

تحت رعاية وزارة الصناعة والتجارة - الوزير شارون،

صندوق تشجيع الفيلم الاسرائيلي

وابراهيم بولص صاحب مصانع في الجليل

حكم المباراة: الكاتب والمخرج الاسرائيليين

ساعد في التحكيم -(بداية او بدون، بقصد او بغير قصد، بهدف او بلا هدف).

حكام الخط: الممثلون الفلسطينيون العاملون في السينما الاسرائيلية.

● مرشيه ايبجي ومحمد بكري وخلفهما (من اليمين) سهيل حداد وغسان عباس ويوسف أبو وردة ●

Digitized by Birzeit University Library

عاصفة في الماء الراكد

على ما يبدو فان "العواصف لن تنتهي هذا العا

على ما يبدو فان "العواصف لن تنتهي هذا العام" بعاصفة الصحراء فها هو "اميل حبيبي" يثير "عاصفة في الماء الراكد". وطالما نحن بصدد مناقشة هذا الفيلم، واطلاع القارىء عليه كونه يهم الفلسطيني، والذي هو أحد أقطاب الصراع في هذه المنطقة، فلقد لفت انتباهي ما كتبه السيد "اميل حبيبي" حول فيلم "الكأس النهائي" في جريدة القدس الصادرة بتاريخ ١٩٩١/٧/٢٣، وها نحن نورد بعض المقتطفات مما ورد في هذه المقالة وبدون تعقيب.

« لست ناقدا سينمائيا منذ ادماني على التلفزيون وانقطاعي عن مشاهدة الافلام السينمائية، المعروضة في دور العرض السينمائي، اصبح يبهرني كل فيلم سينمائي جديد تقع عليه عيناني - صدفة - في قاعة مغلقة.

فلم يبق لي ما اطمئن اليه من بوصلة سوى الغرض السياسي الانساني والاصالة الفنية.

وهو ما استحوذني، على الرغم من هنات هنا وهناك، في الفيلم الاسرائيلي الجديد - «مباراة كأس العالم».

« لقد اسهمتم، ايها الاصدقاء الفنانون المطبوعون، اسهاما مباشرا وعظيم الشأن، في تمزيق هذه اللثامات نفسها بهذا الفيلم الذي جرؤتم على القيام به على الرغم من ادراككم الحدود الاسرائيلية الضيقة المتاحة امامكم فيه للقيام بمهمتكم الفنية الحضارية الانسانية وعلى الرغم من ادراككم، واحدا واحدا، ما سوف تتعرضون له من انتقادات من قبل بعض القوميين الصادقين ومن قبل افراد «السرية المخفية» الملثمين - عمدا - بلثمات التطرف القومي.»

« لقد شارك في تمويل الفيلم مؤسسات رسمية وغير رسمية. وعلى رأس غير الرسمية منها مؤسسة الصناعي العربي المعروف ابراهيم بولس الذي تبرع بمبلغ ضخم اضاف به مأثرة ثقافية هامة الى مأثرة الصناعية.»

« وفيما تصح الملاحظة انه ليس جديدا على الاعلام الاسرائيلي الرسمي «قتل القتيل ثم بكاء القاتل» فان نقاوة الهدف الانساني وخلوه من الشعارات الطنانة السياسية، الى اقصى حد ممكن، يغلبان على تلك الغاية المنتقدة. وسينتهي الجدل حول هذا الفيلم، في اعتقادي، الى تقرير الموقف من السؤال: هل يجوز للفلسطيني، من مواطني دولة اسرائيل، الاستفادة من الخدمات الثقافية التي تسهم الدولة فيها ومن الحيز المتاح، ديموقراطيا، للتعبير ثقافيا على الامانى العادلة؟ لقد كنت، ومنذ اكثر من ربع قرن، من اوائل من اعتبر هذا الامر ليس ممكنا وجائزا فقط بل هو حق اولي من حقوقنا لا يكفي انتظار تحقيقه بل علينا الكفاح الدائب من اجل تحقيقه.

واليوم يستطيع محمد بكري وسليم ضو ويوسف ابو وردة وبسام زعمط وسهيل حداد وغسان عباس وجوني عربيد وفكتور قمر وغادة ابراهيم وسامي سمير ان يحلموا، برأس مرفوعة، انهم حققوا هذا الانجاز الحضاري لقضية شعبهم العادلة - انها، في الاساس، قضية عادلة وانسانية - بفضل امالتهم الفنية والوطنية وايمانهم العميق بانسانية كفاح شعبهم الفلسطيني وبفضل مسؤوليتهم الفنية والوطنية والانسانية التي جعلتهم يدركون، قبل هذا الفيلم بزمن طويل، عبث التطرف والتشنج والشعارات الصارخة التمثيلية والملثمة.»

«مما لا شك فيه وجود «هنات» سياسية في هذا الفيلم. فهذا هو الثمن. ولكنه ثمن ليس باهظا بالمقارنة مع ما حققه ويحققه هذا الفيلم من جلاء لانسانية وعراقة الفلسطيني ورفضه للممارسات الهمجية.»

«ملاحظة اخرى بصدد الترجمة الى اللغة الانجليزية. كان قائد المجموعة الفلسطينية، زياد، ينادي افرادها بـ «يا شباب». وفي مكان واحد فقط ترجمت الى الانجليزية ترجمة صحيحة «Guys». ولكن، فيما بعد وباستمرار وحتى نهاية الفيلم، ترجموها بـ «عصابة» - «Gang» - من المتوقع ان لا يكون الخطأ مقصودا. ولكن يجب الاسراع في تغييره.»

«انني اقترح قيام المؤسسات الفلسطينية بعرض فيلم «مباراة كأس العالم». كما اتمنى على اهل الفن العرب - خصوصا في مصر مشاهدة هذا الفيلم والتعليق عليه.»

«فحرام ان تضيع على مجتمعاتنا، هذه المرة ايضا، هذه العاصفة الجريئة الجديدة التي عصفت بالماء الراكد.»

Digitized by Birzeit University Library

ماذا يقول «حكام الخط» - الممثلون العرب في الفيلم -

محمد البكري

بكفي تشتغل في السينما الاسرائيلية ... اعمل افلامك الفلسطينية .. في كل مرّة اصل لهذه النتيجة لاني أجد الكذبة المدسوسة تحت طاولة المونتاج

ماذا تقول عن الفيلم؟

لديّ مآخذ كثيرة على هذا الفيلم، اهم هذه المآخذ انه تمت عملية حذف كبيرة لمشاهد ولقطات كثيرة في الفيلم، وهذا ما تحدثت عنه الصحف العبرية ايضا، لقد حذفت اشياء تتعلق بالشخصيات في الفيلم، لأبي عياش وموسى وجورج ... وكذلك لزياد وهو الدور الذي قمت بأدائه، فقد تم حذف «مونولوج» هو بنظري أحلى الاشياء التي عملتها بالفيلم.

وهل تحفظه؟

معلوم .. طبعا احفظه، ولن اشرح لك ... لأنك سوف تدرك بنفسك لماذا انا متوجع من حذف هذا «المونولوج»، وكم يعطي عمقا للشخصية، وسببا دافعا لها لوجودها في المقاومة.

يقول «المونولوج» وهو يأتي بعد مقتل فتحي.

«لما طلعنا في الـ (٤٨) من حيفا كان عمري (٤) سنين -فتحي- بيكون إبن اختي، بذكر كيف كان الطرح دايرر ... واصوات المدافع ... الدار كلها كانت تهز ... كنا ساكنين في الطابق الثاني ... والطابق التحتاني كان فيه فرمشية لأبوي .. أبوي كان فرمشاني ... اول ما تكسّر قزاز الفرمشية ... بتذكر خواتي وامي صاروا يصرخوا ... مهو النسوان دايما بتصرخ .. ابوي على السكت طلعنا من البيت .. سكر الباب بالمفتاح ... وحط المفتاح بجيبته .. ومشينا .. عالم الله دالقاع المنيا .. نازلة تركض ... والطرح دايرر .. ما حسيت حالي الا وأنا بالمينا .. والجنود بقشطوا فينا على العفن ... ما حسيت حالي الا وأنا بحضن امي .. وامي بتقلولي (وين فتحي يمّا ..؟! وين فتحي ..؟) فتحي اخوي حطّ بالمينا ... اختي بعدين سمت ابنها فتحي ...)».

كل هذا حذف بالمونتاج، واشياء اخرى غيرها، مثلا توجد جملة «لجورج» حين يسأله الاسير كوهين عن اصله:

كوهين: هل انت فلسطيني ..؟

جورج: امي فلسطينية ... أنا اخترت ان أكون فلسطيني ..

كوهين: مين فكرك رايح يربح في هذي الحرب ...؟

جورج: لا رابح في هذي الحرب.

وهذه هي كذبة الفيلم ولهذا انا لا احب هذا الفيلم لأنني عندما اشتركت بالفيلم ... اشتركت لأني اريد ان اعمل فيلما ضد الحرب، الفيلم الذي يمكن ان يقول في النهاية، خلص .. بكفي حرب .. بكفي سلاح .. بكفي قتل وسفك دم .. خلونا نقعد ونحكي على طاولة مستديرة. هذا كان السبب الذي جاء بي للفيلم. والسبب الثاني اني اريد ان اظهر شخصية الفلسطيني بعكس ما يظهرونه بافلامهم عادة .. فليس هنالك فيلما اسرائيليا يظهر به الفلسطيني بصورة ايجابية لو استثنينا فيلم «من وراء القضبان».

حتى على ذلك الفيلم يوجد ملاحظات كثيرة

هذا صحيح .. وهي نفس نوعية الملاحظات التي تقال على هذا الفيلم ومن نفس المنطلق الذي -ازعلني- من ذاك الفيلم، انا زعلان من هذا الفيلم.

ولكن الا تشعر بأن هذا الفيلم اخطر من الاول؟

هذا صحيح، وهذا بسبب انني نجحت في «من وراء القضبان» بأن اغيّر في الفيلم -اما في هذا الفيلم فلم انجح.

وماذا ايضا؟

يوجد كثير من الملاحظات، وأهم هذه الملاحظات بنظري هي نهاية الفيلم نهاية الفيلم تثبت الكذبة الصهيونية المعروفة التي وجدتها في فيلم «من وراء القضبان»، والتي وجدتها في اعمال اغلى اصدقائي للأسف الشديد، والتي اجدها في كل عمل اسرائيلي، والتي توصلني دائما للنتيجة المطلقة: انه بكفي تشتغل في السينما الاسرائيلية، إعمل افلامك الفلسطينية .. كل مرّة نصل لهذه النتيجة ..

هذا الكلام للنشر؟

معلوم ... وفي كل مرّة اصل لهذه النتيجة، لأني اجد الكذبة المدسوسة تحت طاولة «المونتاج» .. وتظهر لي فجأة ...

وكيف ظهرت لك هذه المرّة؟

كما قلت لك، عندما يقول «جورج»(لا رابح في هذي الحرب)، في المشهد المحذوف الذي تكلمنا حوله، يتضح انهم هم الفائزون في هذه الحرب. لاننا كلنا نموت في النهاية، وكوهين يخرج حيّا..!

كلمة اخيرة ..؟

لقد حاولنا ان نغيّر في الفيلم، وحاملنا جهدنا، ولولا وجودنا مع المخرج في هذا الفيلم لما كان هنالك فيلم .. ولكننا ولهذا السبب نحن «زعلانين» - وقعنا في الشرك الذي بنيناه نحن لأنفسنا.

بسام زعمط

لقد تمت عملية خداع شرسة لنا ... والسيناريو كان طُعما لنا للمشاركة في الفيلم

Digitized by Birzeit University Library

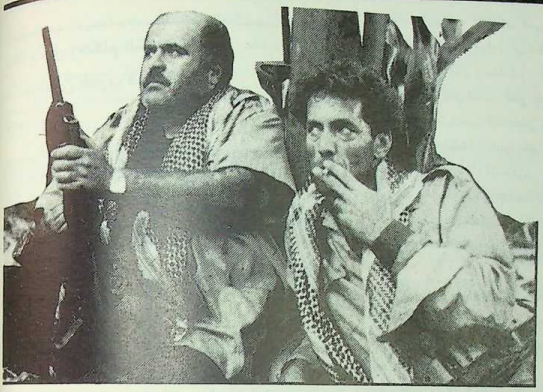

محمد بكري وبسام زعمط عندما اجبرا الاسير على ذبح الدجاجة

ما هي المشكلة في هذا الفيلم؟

المشكلة في عملية «المونتاج» .. عندما أخذ الممثلون العرب السيناريو قبل واثناء التصوير، كان يطرح شيء ... وبعد ما مرّ على طاولة «المونتاج» إنقلب الى شيء آخر.

هل من أمثلة؟

مثلا كل الشخصيات الفلسطينية التي بالفيلم، كانت مرسومة بشكل جيد، مع خلفيتها وتاريخها ودوافعها، ولماذا تركت البلاد ... الخ، وكل هذا -تقمص-، عندك مثلا مونولوجا لابي عياش ثم حذفه ويقول فيه:

«وكان في واحد بشتغل «عصفور»، هو اللي وز علي، وأجو علي سيارتين حرس حدود بدهم يحتلوا البلد، على اساس انهم بدوروا علي، فهربت، بالآخر لقطوني - لقربوا علي اول واحد منهم ممسكته من رقبته، والثاني طخني بركبتي، فلما طخني بركبتي .. بعد عني الجندي اللي بين ايدي .. بعد عني، ونزل فيي بكعب البارودة على ركبتي وين انطخيت، عشان هيك انا ملق بعرج، بعدين حبسوني - وبعدين مع تبادل الاسرى طلعت».

ويحكي تاريخه، ومن اين جاء، وما هي قصته، وكيف كان يعمل عند أحد المقاولين اليهود، وكيف كانت إمرأة هذا المقاول دائما وكلما تراه تقول له ان لديه عينان مثل «فتح».

وهكذا كل هذه «الحلاوة» المرسومة للشخصيات ضاعت في عملية «المونتاج»، وبمعنى آخر فان السيناريو الاصلي كان طُعما للممثلين العرب، لكيّ يقبلوا المشاركة في هذا الفيلم، ونحن نعترف بأنه تمت هنالك عملية خداع شرسة لنا نحن المشاركين العرب في الفيلم.

ولكني اشكر الله على ان شخصية المحارب الفلسطيني لم تظهر في الفيلم كالحيوانات على الاقل، ونحن كممثلين عرب علينا ان لا نتوقع من المنتج اليهودي اكثر من ذلك، كان لزوما علينا ان نعرف منذ البداية اننا نعمل مع منتج اسرائيلي، ومهما بلغت نواياه الحسنة، فلقد كان علينا ان نتوقع، انها سوف تتحول وتتكسّر على طاولة المونتاج، مثلما انكسر الفيلم نفسه.

هل يعتبر هذا الكلام ادانة لانفسكم؟

لا .. لا ندين انفسنا، لأن افلاما كثيرة مثل «من وراء القضبان» و «مستر طيب جدا» سبق وان اخذت دعاية جيدة، مع انها كانت مجرد افلاما دعائية صهيونية بحتة.

اذن لماذا تستمرون بالعمل في السينما الاسرائيلية؟.

لعدم وجود سينما فلسطينية.

هل هذا مبررا كافيا للمشاركة في افلام تعرفون مدى خطورتها؟

لا .. ليس مبررا ولكننا خدعنا وتم الغدر بنا في هذا الفيلم- حتى برنامج «جيران» الذي شاركت به للتلفزيون الاسرائيلي لم يكن به حجم الخطر الذي يوجد بهذا الفيلم.

اخيرا كيف تقيم الفيلم من الناحية الفنّية؟

ضعيف ... ومن كل النواحي .. حتى ان كاتب السيناريو نفسه، خرج غير راضٍ عن الفيلم، ولقد قال لي شخصيا بأن الفيلم تحول للعبة اولاد صغار. واخيرا انا كبستام اعتبر ان هذا الفيلم ليس مخيبا فقط بل هو «فشلة فنية».

Digitized by Birzeit University Library

ليلى والطوفان

د. حسن عبد الرحمن سلواي

ليلى تلهث في الصحراء..... تبحث عن ماء آسن.... يطفىء جمرا في الاحشاء أوقده شوك بري وعصارة صبار زرقاء.

راقته الفكرة أخيراء ولذ نغمها في أذنيه. تمتم وهو مغمض العينين سارح في متاهات الغلالة البعيدة: ليلى يانبع الالهام، يا بشارة الميلاد والفرح. لهفي عليك طاوية تائهة في الفلوات. ليلى يا نبض القلب يا وجد الصوفي، تكلمي لا تصمتي، أشهري سيف الحرف ونور الكلمة في وجه العري.

دخلت امرأة قيل له يوما انها زوجه على حين غرة، في يدها جرول ماء ومنشة قش. نظرت اليه بطرف عينها نظرة ازدراء، وبغضب قالت: أيها المستلقي على قفاه، لن ترى ليلاك بعد اليوم، سأمزقها اربا. سأكورها في كيس قمامة.... أفاقة متشردة، ألفت دروب المكر، واعتادت على الكدية والاحتيال ولا تتردد في ارتداء اثواب الاخرين وأخذ أدوارهم. تحفز للرد: لن يطالك يا ليلى أحد بعد اليوم، لن يمس شعرة منك كائن من كان.... حرة كنت وستبقين الى أبد الدهر نغما للظهر ولحنا للوجود....

ادارت المرأة منكبيها وبدون أن تعيره أي اهتمام بدأت تنش سقف الغرفة بضربات متتالية فجأة انهالت العناكب من كل اتجاه، أخذت تسبح في أرض الغرفة وعلى ملاءة السرير وفي زوايا الحجرة الضيقة، سرى بعضها فوق جسمه الملقى على السرير ككومة قش مهترئة. أراد أن يصرخ: لا لا تصمتي ليلى.... اتوسل اليك.... لا ينبغي السكوت بعد اليوم. لكن فمه امتلأ فجأة بلفافة قطن، وامتد اللاصق من فمه الى أسفل أذنيه. قهقهت المرأة عاليا: أصدعتنا بليلاك قلت لك ان تجد لها أثرا بعد اليوم ستذوب في بحر لجي، سيتحلل جسمها الى ذرات طينية يجرفها السيل الى مستنقع نتن.

هذه الزوجة اللعينة تكاد تخنقني بتعليقاتها، تحيط بي من كل جانب.... تحاصرني.... احساسه يتزايد يوما عن يوم بأنها الأمر النافي.... بيدها الحل والعقد ولها وحدها حرية التصرف والتدبير، مع أنها تعلم يقينا أن ارتباطها بي جرى في ظروف قسرية غامضة لم أكن فيها مالكا لأمري أو متصرفا في شؤوني

امتلأ جسمه بالعناكب، في لحظات أحاطت به احاطة السوار بالمعصم، وامتدت خيوطها اللزجة تشد من وثاقه وتقيد اطرافه، كأنما تريد تحنيطه كفرعوني صغير. غير أن قلبه ما يزال ينبض وفي أطرافه تسري دماء الحياة.

أصابه دوار شديد، أراد أن يحتفظ بذاكرته، تشبث بمقبض السرير الخشبي، وراح يحملق في الخطوط الكلسية المتجرة في سقف الغرفة. تحول السقف الى لوحة ثرية بالظلال والالوان. خيل وفرسان وساحات نزال ورجال يعتمرون الكوفيات ويرسمون شارات النصر، سرت في جسمه حمى كما تسري عصارة النبت في موسم التفتح. رأسه يكاد ينفجر وعرق الرجولة يلمع على جسمه وبين شعره الكثيف كحبات اللؤلؤ. أقنت المرأة في هذه اللحظة ذراعيها على طرفي الباب وسدت منافذه بجسمها المكتنز. كانت تنظر اليه بشماتة، وتلقي عليه نظرات سهمية مسمومة. يا فأرى الصغير أظنك تيقنت الآن من هو الذي يهبك الحياة ويوردك الموت. ها أنت ملقى في جحرك كخرقة كتان بالية. ليس أسرع من موتك الآن ضربة واحدة بهذه المنشة وينتهي كل شيء. أنا ملك الثقلين هل عرفت؟ أنا الجبار المتصرف في كل شيء في الظاهر والباطن في السر والعلن، أفعل ما أشاء وما اريد بلا حسيب أو رقيب، بيدي خيوط المعادلة. أجمعها كيفما أشاء وأرسلها كما يحلو لي.

انتفخت شرايينه وأوشك الدم الفائر ينفجر من بين عروقه. تبا لهذه المرأة الفاجرة. طغيلية حقيرة تكلّس قلبها بين ضلوع حجرية. لكن ليلى لا تريم، (صامتة صمت القبور). عيونها زائغة والطوفان البابلي يحاصرها، يكاد يغرقها، يذيبها كحبة ملح... لكن ليلى لن تغرق، ليلى قمر التاريخ، وأنس المجالس، ليلى ملك الحوريات، هي مد البحر ودائرة الزمن... ليلى هي الطوفان. تحركي ليلى... أنطقي، فالصمت قاتل والهزيمة أمام هذه العاهرة عار أبدي.

يا لطف الله! الغرفة تتحول من الركن الى الركن الى بحر مضطرب من العناكب، الدنيا كلها عناكب والمرأة المكتنزة ما تزال مسمّرة عند الباب كعمود حجري في معبد وثني قديم، صوب ناظريه عاليا.... عجبا!! اللوحة في سقف الغرفة تفجرت فيها الحياة وغدت جوانبها نابضة بالحركة والعنفوان. يرن الآن في أذنيه صهيل خيول نجدية، وجلبة أصوات وصليل سيوف، وتكبيرات النصر يلهج بها قرويون من تدمر والاوراس. انتفض في سريره كعصفور بلله القطر وسرت في جسمه قوة غريبة، مد ذراعيه جانبا وضغط بقوة على أصابع يديه. امتلأت كفاه بالعناكب، شد عليها بقبضته القوية وألقى بها فجأة في وجه المرأة المصفح بالجليد ثم نهض واقفا بعد أن مزق من حوله خيوط العناكب اللزجة، انقض كالباشق صوب الباب. هوت قبضته كالمطرقة على الجسم المكتنز لكنها اصطدمت بالفراغ. أصابته

Digitized by Birzeit University Library

الدهشة. هذه المرأة الافعوان لا بد من تحطيم رأسها وتهشيم ضلوعها. بحث عنها في كل أركان البيت، طاردها، غير أنه لم يجد سوى الفراغ، ترى أين ذهبت. انه ما يزال يحس بها. ذراعاها يطوقانه، وكفاها يضغطان بقسوة على عنقه. أمواج العناكب ما تزال تتلاطم في جوانب الغرفة. وبدون تردد اتخذ مع نفسه قرارا بمواجهتها. أخذ يدوسها بكلتا قدميه ويعصرها بين كفيه أفرغ فيها كل ما يعتمل في قلبه من حقد وغضب، سيطر عليه التعب وتصببت حبات العرق من جبهته العريضة، تورمت قدماه وتقرحت اطرافهما لكنه لم ييأس ولم يفلح الوهن في التسلل الى قلبه فقد شعر وهو يواصل هجومه وتصديه بارتخاء الكفين اللتين تحوطان عنقه وتحاولان خنقه، وكتم أنفاسه، وحين بزغت على البقع التي تطهرت من العناكب براعم البنفسج، أبهجه منظرها ودبت فيه روح جديدة وواصل المواجهة بعزيمة قدت من صخر.

جميل مكحل

«عن ... الفرحة»

«عن ... الفرحة» « عن ... الفرحة الذائبة»

اهدانا الشاعر جميل مكحل ديوان شعر حمل عنوان «عن .. الفرحة الذائبة»، حيث يقع الديوان في ٧٥ صفحة من القطع الصغير ويضم ٢٥ قصيدة.

ملحم خطيب

و

«دللني يا كرم بلادي»

عن رابطة الكتاب الفلسطينيين في اسرائيل صدر مؤخرا ديوان شعر جديد للشاعر ملحم خطيب حمل عنوان «دللني يا كرم بلادي»، حيث يقع الديوان في ٨٠ صفحة من القطع المتوسط، ويضم ١٢ قصيدة.

الجدير بالذكر ان الشاعر كان قد صدر له ديوانين هما وجهك والمزامير وخلف الثلاث الابيض.

زكي درويش والخروج من الضباب

عن دار الاسوار / عكا، صدر مؤخرا مجموعة قصصية جديدة للكاتب زكي درويش، بعنوان «الخروج من الضباب» وتعتبر هذه المجموعة هي العمل العاشر للمؤلف تقع المجموعة في (٨٧) صفحة من القطع المتوسط وتضم ٥ قصص.

رحلة عذاب

حليمة جوهر

في كهف يحتضنه احد الجبال الثلاثة التي تتقابل لتشكل مثلثا في جوفه واد سحيق في حي (أم الرتم) (١)، لد حامد وعاش طفولته وصباه.، كان يعتز امام أقرانه ويفتخر، وأحيانا يتعالى عليهم.. واذا بلغ الامر أشده بينهم فانه يعايرهم ويعيب عليهم انهم يسكنون الخيام بينما هو يسكن كهفا في باطن الجبل، في الشتاء تفرشه أمه بالبسط التي تنسجها، فلا يشعرون ببرد الشتاء القارس ولا ينهال فوق رؤوسهم وهم نيام عندما تهب رياح شديدة، فينامون ليلهم الطويل دون أن يكدر صفوهم شيء.

وحامد ترتيبه الثالث في اخوته واخواته العشرة، أحب أمه وأباه واخوته كثيرا، وكان نفوذه قويا على اخوته، يعلمهم ويوجههم، وحمل نفسه مسؤوليات العائلة رغم صغر سنه، فصار يحترمه الكبار والصغار، وكثيرا ما كان الجيران والاقارب يستشيرونه في أمور حياتهم. كيف لا، وهو الوحيد في القرية الذي أنهى الابتدائية وانتقل الى مدرسة الرشيدية في القدس ليكمل تعليمه.

لم يشأ حامد ان يكلف اباه مصاريف المدرسة، فقد كان الفتى عصاميا يشفق على والده ويحزنه احديداب ظهره حتى يكاد وجهه يلامس الارض. رجاه كثيرا ان يكف عن العمل.

- باالله عليك يا ابي.. ارحم نفسك وارحم قلبي الذي يكاد يتمزق عندما يراك تحمل بضائع الناس وتسير المسافات الشاسعة.

- ماذا اعمل يا ولدي.. وهذه الافواه المفتوحة من يملأها؟! ثم انني تعودت على العمل.. ولو تركته أكون كالسمك حين يخرج من الماء.

- اذا اشتر دابة أنقل عليها البضائع.، وارح ظهرك المسكين، انك تظلم نفسك يا ابي "ولنفسك عليك حق".

- من أين آتي بثمن الدابة يا ولدي؟! ثم انك تعلم ان لاحظ لي مع الدواب، هل تذكر الحمار الاخضر، اشتريته بعشرة دنانير وسرق، وقبله الحمار الحرون وقبل ان انقل عليه شيئا.

- نفير يا ابتي.. سنشتري بغلا ربما يكون حظنا معه أوفر.

- وهل نملك الان ثمن الحمار حتى نشتري البغل، أم تريدني ان أزيد أفراد العائلة فردا آخر.، لا يابني ظهري افضل من ظهر الحمار والبغل ايضا.

امتعض حامد من حديث أبيه وعناده، وراح يفكر بطريقة يساعد فيها موسى الغلبان ويريح ظهره المحدودب. وكعادته توضأ وصلى

Digitized by Birzeit University Library

ملاة الصبح.. تناول قطعة من خبز الشعير المخلوط بالذرة.. بحث عن كيس النايلون الذي يضع فيه كتبه ولم يجده.. فحمل كتبه وخرج. لحقت به امه وناديته:

- حامد.. يا حامد.. لقد نسيت القرآن.

- اعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. انها المرة الاولى التي أنسى فيها توأم روحي.

- سلامة روحك يا بني.. الله يوفقك ويعينك على مشوارك.

غذ حامد الخطى مسرعا ليلحق مدرسته. وعندما اشرف على حي (الزعرورة) (٢) راح ينهب الارض ركضا. اليوم الخميس والدوام يبدأ قبل الثامنة، دخل حامد الصف يلهث ويتصبب عرقا، وراح يصغي بكل جوارحه لما يقوله المعلمون المتعاقبون على الصف وهو يمني نفسه بان يطول الدوام حتى يأخذ قسطا من الراحة.

وفي طريق عودته الطويل سار شارد الذهن.. وبالقرب من مقبرة باب الاسباط لفت انتباهه نداء امرأة. تلفت حوله لم ير احد غيره في الشارع فايقن انه المقصود.. توقف قليلا وسأل:

- اتناديني يا أمي؟!

- نعم اناديك، الست طالبا في الرشيدية؟

- نعم.

- اتجيد قراءة القرآن؟.

- كما أجيد لفظ اسمي.

- حسنا، تعال واقرأ لي على أرواح موتاي، فان قرأت جيدا سأجزل لك العطاء.. واحضر لك زبائن.

تهلل وجه حامد وانفرجت اساريره وقال:

- يا فرج الله.. اسمحي لي يا أمي أن اتوضأ أولا.

سرت المرأة لطلبه واستبشرت به خيرا. وحين بدأ حامد يقرأ بصوت خاشع جميل.. بدأت دموع المرأة تنهمر وتسيل متساقطة عن ذقنها، وعندما انتهى اعطته دينارا وكيسا من الحلوى وطلبت منه أن يأتيها كل اسبوع.

طار حامد الى (أم الرتم) يقفز فرحا.. وضع الدينار في يد والده، والحلوى في يد أمه، وفي الليل جلس يقرأ جذلا على ضوء السراج.

سنتان مرتا صار فيهما حامد القارىء الوحيد في مقبرة باب الاسباط، اشترى البغل لأبيه.. ووفر ثمن مصاريف الجامعة.

رفعت أم حامد رايات الفرح عندما انهى التوجيهي، زغردت وغنت:

آه يا ناس صلوا النبي	آه لما يلين الحديد.
آه يا حامد نجح	آه يا عقبال كل حبيب.

وليلة سفره الى مصر ليلتحق بالجامعة غنت:

نزل حامد ع البحر وفي ايده كيله — يا رب تروه سالم للعيله.

نزل حامد ع البحر وفي ايده بريق — يا رب تروه سالم من هالطريق.

اربع سنوات مرت وحامد يمني نفسه بالعودة مهندسا تفخر به أمه، ويريح والده من عناء وشقاء السنين. الا ان الظروف كانت أقوى منه، والصدمة العربية كبيرة كانت عندما انبعج الجرح واتسع وصارت الارض دبيحة كاملة، حزنت القلوب ودمعت العيون دما.. نكست الرؤوس والرايات، فسمي ذلك العام بعام النكسة.

بكى حامد مع الملايين، تمزق قلبه حزنا، وتفجر ينبوع شوقه وحنينه لاهله.. لكهفه الغالي.. للمآذن الحزينة.. للمدرسة.. لباب الاسباط ومقبرته.

وبدأ ليل الغربة الحقيقي يخيم عليه، عندما أيقن انه لن يعود اليها.

احمد الجوعان زميل دراسته وصديقه الكويتي وقف الى جانبه وراح يخفف عنه مصابه، وعرض عليه ان يسافر معه ويعملا سويا في الكويت.

رفض حامد بشدة:

- لا يا صديقي. يعز علي ان اعمل في بلد غير بلدي، لا بد أن افكر بطريقة أعود فيها.

- الله.. ايش هالكلام هاد اللي اسمعاه يا صديجي (صديقي) هو في فرج (فرق) بين الاهل في الكويت والا في فلسطين والا في مصر.. ثم انك ستكون ضيفا بين اهليك واخوانيك، ومشكلتيك سحابة صيف وتعدي بعون الله بهمة الامير والاخوان العرب.

دهش حامد عندما اكتشف انه لم يكن الوحيد الذي نفي الى الكويت، فقد التقى بالمقاولين واصحاب المهن الحيفاويين واليافاويين الذين اجبروا على ترك الوطن عام ١٩٤٨.

والتقى بالمصريين والسودانيين والسوريين، انصهر الجميع تحت شمس صحراء الكويت، فسال العرق واحدا وامتزج الدم واحدا فارتوت به رمال الصحراء العطشى.

لم ينسى حامد انه اصبح لاجئا مغتصب الحق في العودة لوطنه وأهله، وأقسم ان لا يتزوج الا في وطنه حتى لا يذوق ابناؤه عذاب التشرد واللجوء، لذا كان همه الوحيد ان يرسل لابيه واخوته ثمرة جهده وعرقه ويوصيهم بالبناء والصمود امام القهر والعوز الاقتصادي. وكان يعزي نفسه ويصبرها بالرسائل المتبادلة بينهم، حيث كان يسأل فيها عن كل صغيرة وكبيرة في الوطن الغالي حتى البغل لم ينسه وسأل عنه في احدى رسائله: "طمئني يا اخي محمود ما اخبار البغل؟ وهل لا يزال الوالد ينقل عليه بضائع الناس؟"

فرد عليه محمود: "لقد نسيت ان أكتب لك عن البغل، الم تعلم ان البغال مارت خطيرة على الامن ايضا؟! لقد اصيب - في احد ايام منع التجول الكثيرة - برصاصة قتلته على الفور!! لا تحزن يا أخي الم

Digitized by Birzeit University Library

يقل لك الوالد ذات مرة ان لاحظ لنا مع الدواب؟!".

ثلاثة شهور منذ بداية العام ١٩٩١ هرت وابو حامد يحاول الاتصال بولده حامد، انقطعت اخباره وانقطعت رسائله.. الى ان جاء اليوم الذي أحس فيه ابو حامد برائحة الفجيعة تخترق جدران قلبه، ويفعل تحذير الالم الناشب في صدره، جلس بين المعزين يقبض على الرسالة بيديه.. يفتح المغلف ويخرج الاوراق يشمها.. يقبلها، ويمطرها بدموعه المتساقطة، ومن خلال نشيجه العالي يخرج كلماته متقطعة حزينة.

- من ساعة ما قال لي المختار هذه رسالة من حامد.. وقف شعر رأسي وهبط قلبي، لم استطع لمسها.. اوقعتها ثلاث مرات قبل ما افتح المغلف، شعرت بها ثقيلة، ويقلب الوالد شعرت ان خبرها ثقيل.

ردد كلماته هذه أمام وفود المعزين، وعند الكلمات الاخيرة كان دائما يجهش بالبكاء ولا يستطيع المتابعة.. فيمد يده بالرسالة لاحد الحضور.. يفتحها ويقرأ:

"الساعة الآن الحادية عشرة ليلا، وفي ليل الغربة انتشل كلماتي من خلال جراح قلبي الدامية، وحشة الليل تخيم على الغرفة الخالية الا من جثتي وسريري (زكي وسعدون الخالبين.. لا بد انهما الآن في سجن "قطار الموت".. وانا وحيد والوحدة موت بطيء يعذبني.

أحس برأسي يتثاقل امام تيار الذكرى: اني امام الكهف الذي عشت فيه سنين طويلة. اسمع الصراخ الذي يتحدى وحشة الليل وارى حامد الصغير يتسلق شجرة الزيتون.. يأتي والده يضربه برفق ويربطه في جذع الشجرة، تسرع اخته تفكه ويركضان الى الحارة يلعبان لعبتهما المفضلة "محاكمة الكبار". كان الصغير حامد سعيدا بدور الحاكم. ولكن، الكبير حامد كيف وضعه الآن؟!

شعور بالقلق ينتابني وانا أحس بوضعي الحرج.. أهي النهاية؟! الى قطار الموت؟!

آه فوهة الجرح تتسع.. والم السياط يزداد وخزا، وعلى البعد استنشق آلام زكي وسعدون. الا تكفي الجراح النازفة فوق جرح الوطن؟! لارى جراحكما تنزف والمكما يتجذر في القلوب.. ودجلة الحزين لا يزال يضمد جرحه بعد احتضان الضحايا.

وسعدون أحس بالبصمات الوحشية على جسده. فهي متشابهة على جسدينا.. خزانته المخلوعة لا يزال الهواء يتلاعب بدفتيها المحطمتين، تذكرني بالخزانات المخلوعة في بلدي.. كلهم هنا في بلاد الشيخ الصباح.. وهناك وفي كل مكان تربض فوقه المنخفضات الجوية تخيفهم الكلمة النابضة كشرايين الدم الحمراء والهامة المرفوعة فيسارعون الى اسقاطها مهما كلفهم الثمن...".

رفع الرجل عينيه عن الورقة، ونظر الى الحضور الذين ملأتهم الحيرة والدهشة وضجت الغرفة بالهمس ممزوجا ببكاء ابو حامد المرتفع.

- ما هذا الرسالة؟!

- لم افهمها!!

- انه كلام حامد.. اذا هو حي ولم يقتل؟!!

صاح قارىء الرسالة: ملاحظة مكتوبة بالخط الاحمر:

"هذا الاثر الوحيد الذي عثرنا عليه تحت ساق الطاولة في غرفة حامد بعد افتقاده.. فتشنا عليه كثيرا وقبل ارسال هذه المذكرات بساعات وجدنا ثلاث جثث مشوهة في صندوق للقمامة وسط مدينة الكويت كانت جثة حامد احداها.

نتمنى لكم الصبر والعزاء."

---

٢٠١ اسماء امكنه تقع في عرب السواحرة جنوب شرق القدس.

الفكر الصهيوني بين التصور النمطي والتصور الفردي في الادب العبري الحديث لعمر غرة

عن منشورات اتحاد الكتاب الفلسطينيين في الضفة والقطاع صدر مؤخرا كتاب بعنوان «الفكر الصهيوني بين التصور النمطي والتصور الفردي في الادب العبري الحديث» للاستاذ عمر غرة. يقع الكتاب في ٢٢٦ صفحة من القطع الكبير. الجدير بالذكر ان الكتاب كما ورد في التقديم انه في الاصل رسالة اكاديمية لنيل درجة الماجستير في الادب العبري، اعدت باللغة العبرية في كانون اول ١٩٨٦، وترجمت بتصرف الى العربية.

أسف واعتذار

نقدم اسفنا واعتذارنا الى الكاتب صالح زقوت لعدم تمكننا من نشر مقالتيه النقديتين حول المجموعتين القصصيتين لكل من الكاتب عمر خمش وزكي العيلة وذلك لأسباب عديدة خارجة عن ارادتنا.

Digitized by Birzeit University Library

درس في الافعال

غريب عسقلاني

كان الصبح نديا، رغم سحب الدخان، في ازقة المخيم وفي المدرسة تجاوز الاطفال متون الايام، قالت المعلمة:-

- ضع فعلا ماضيا في جملة مفيدة

قال حسام

- نزح اهلي من مدينة المجدل.

وغضبت رأنية

- قتل الجنود خالي محمود.

وعبس سعيد

- جرح المشمار كفول "حرس الحدود" صديقي اسعد

تجاوزت المعلمة احزانها، ضغط خاتم الخطبة على اصبعها، اشتاقت لمسة اصابع حنونة... سألت:-

- ضع فعلا مضارعا في جملة مفيدة..

قالت صفاء تتباهى:-

- تطرز امي الاعلام كل يوم.

وقال خليل واثقا

- نقيم المتاريس في الازقة.

وقال شوقي وقد اطمأن على البصلة في جيبه

- نشم الغاز المسيل للدموع...

تحشرج صوت المعلمة، وانفلتت دمعة فشلت في حصارها...

ومض في صدرها شاب، صادروه تحت جنح الظلام... اودعوه النقب... وما زال يحلم كثيرا، ويقبل عينيها من وراء الشباك كل زيارة يسألها دوما... فسألت:-

- استخدم صيغة الامر في جملة مفيدة...

لوح مجدي مجاهدا

- ارجموا الجنود

وتميز صوت سامر...

- اشعلوا الاطارات

وتجاوزت هيفاء لثغة لسانها

- غنوا يا اطفال

صدر المعلمة يتسع، يزهر حنانا... تطلعت في افق الدنيا... واسترسلت مع اشعة الصباح... امتطت اعمدة الدخان جيادا اصيلة... سكنتها عيون الاطفال... حلمت دون نوم فارسها يعتلي اعمدة الغضب، سيفه خيوط الشمس... واشتاقت لموعد الزيارة...

ميز الاطفال، صوت سيارة عسكرية قادمة، فاندفعوا نحو بوابة المدرسة... كوروا قبضات الايدي الطرية، باعدوا ما بين السبابة والوسطى... وغنوا بثقة.

Digitized by Birzeit University Library

أحمد... وقد طال الزمن

جبر زيدان جزماوي

- في كل مرة تتحرك صورته الملتصقة بالقلب شريانا لا يكف عن الحياة وضخ الالم، اشعر كم هو قريب هذا الذي استطال زمن رحيله فتلفعت بلدتنا بالبرد انتظارا لحرارة شمس عشقه الدافئة -

امام الجثمان في عتمة الفجر

ينبطح على اطراف قدميك الموت
ينبطح الموت ذليلا تحت الجزء العاري من طرف القدمين
يرفع شكوى المصلوب على باب القدمين
"ما دام الملكوت القدسي يرسو بشواطىء هذي الاقدام
فلماذا تتركني ازحف مخذولا تحت الاقدام"

*****

يتوقف نهر الصمت على ضفاف الشفة السفلى
يرتسم على اركان الوجه جدار الصمت
يتحول نهر الصمت سؤالا يرتفع على اعتاب جدار الصمت
"ما دام الصمت الابدي يهرب من مرأى الاقدام
فلماذا يكتب لي ان اهذي زحفا في صمت الاقدام"

عند العناق مع اذان الفجر

كم عاشقا عند الاذان ضممت في كل العصور
وفتحت ابواب السعادة للخلود او العبور
لكن - ارى عجبا - اراك بادية الحبور
اترى يزورك هذا الفجر فارسك الجسور

*****

يا اخت هذي التوبة المروية الاطراف جارتك القديمة
كم مرة سهرت جوانحنا على ايقاع احزان حميمه
لكن - ولتغفري اختاه فرحتي المقيمة -
انا بعد عناقه اصبحت اغنيه رخيمه

فجر يغني

نفضوا الجراح عن العيون وتلفعوا
بالاحمر المنساب اصرارا على كل البطاح
وعلى حفاف العتم يلتهب الثرى
ويموت هذا العتم يرتفع الصباح

*****

عادوا برايات الضياء وتطيبوا
بالجرح مفتوحا على باب التراب

ملأوا الاكف من البير وتدفقوا
عند التقاء الارض بالشمس السراب
وقفوا فسال الصمت وانفجر الجواب

Digitized by Birzeit University Library

او هل يضير العين امعان النظر

*****

من اي شمس يهمي الدفء في هذي الدماء
يا شيخ عز الدين
يا شيخنا
خمسون شمسا غادرت نحو الضباع
وانا وراء الظل انتظر العطاء
يا شيخ عز الدين
كيف الدماء تخثرت برصاصهم
خمسين شمسا للوراء
وارى دماك القانيات تسيل من دفء العطاء
يا شيخ عز الدين
انا نعود الى الحلول
الى التناسخ والسخاء
فدماء هذا اليوم من ذات الهوية والبهاء
يا شيخ عز الدين
ارقد - فدينك - اني خرجت الى الضياء
ارقد فنهر الدفء ينتظر الصعود مع الدماء.

ويكون احمد والوطن

ماذا لو انحاز الفؤاد الى المنام للحظة ... او لحظتين
او اسلمت قدماك اقدام الرجال لخطوة... او خطوتين

*****

مثلما ينبت صبار على قمة صخرة
او كما يمشق عصفور مع الاشراق زهره
هكذا ياتي التراب العاشق الامجاد في هذا الوطن
هكذا قال الزمن
هكذا تمضي خيول الفجر في درب الوطن
هكذا ياتي شروق الشمس في حضن الوطن
هكذا ياتي الوطن
ويكون احمد للوطن
يكون احمد... والوطن

١٩٩٠/١٠/٨

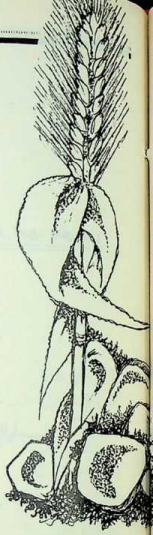

أمه

لا تمنعوا منها حبل اللقاء على وداع
او توقفوا نبض الفراق ولا رجوع
ودعوا لانفاس الامومه دورها
فالقلب هذا الفجر لا يرضى الدموع

*****

ضمي التراب قميصه الابدي وامتحني الحجر
وتحسسي بالقلب هذي الارض وانتظري المطر
وتماسكي فوق الجراح وتحت ضربات القدر
ركن على طرف الجفون حذر ان يصحو المطر
حذار من فوق الجفون يطل اعصار المطر

يعبد تنهض من نومها

ما بال شمس اليوم تستبق الغروب
وعلى رصيف العمر ينتظر المطر
ماذا يضير حجارة دربنا هذا الصعود

Digitized by Birzeit University Library

حمى وردة الشهداء

ماجد ابو غوش

موت

يأتي فجأة
تخور قواك
ترى الاشياء مقلوبة
وتمسك الهواء
بيديك!

مداهمة

يندفع الجنود
وينبشون في كل شيء
يفتشون خلف عينيك
وبين اصابعك المشققة
وتقف مثل اشجار الخريف
عاريا،
وفي عينيك صراخ!

تقاطع

تأخذني اقدامي اليك
وقلبي
تأخذني يداي اليك
وشوقي
تأخذني ضلوعي اليك
وخوفي
الآن أتيك وحدي
فأين انت!
المجد لك
المجد لك
تجري الخيول الى الياسمين
فأين انت
ظهر البدر جليا في حواري
الدم والفقر
فأين انت!.

حمى وردة الشهداء

اترك شاهد القبر القديم
وامضي الى شاهد القبر الجديد
واترك هذا مساء
لامضي متعبا
الى شاهد سيأتي
ايها الشهداء
اتركوا لي فسحة من الارض
والوقت
لامضي اليها متعبا
وانام

١٩٩٠/١٢/١٤

Digitized by Birzeit University Library

طوبى لذبحي

مالك قطينة
القدس

رأسي على النطع!
للمرة المشرين، ذا رأسي على النطع!
للمرة الالفين...
من عهد الى عهد،
ومن ساح الى ساح،
ومن ربع الى ربع...!!

يتبدل السياف،
يختلف القناع،
ووجه موتي واحد،

طوبى لموتي فوق ساح الكبرياء
طوبى لمن أعلى على انقاض اشلائي اللواء!
ولقائد قهر المعابد والمآذن في النجف
ولآخر دحرت جحافله شيوخا ركعا في كربلاء!
فتفاخرت بفعاله كل الصحف...!!

طوبى لعصر الانحطاط
طوبى لفك الارتباط

من بصرة حتى الرباط!
للقيد ينهش لحم رسغي، كيفما شاءوا وشاء!
ولخنجر يغتال نوما مقلقا،
ما بعد ساعات المساء!

طوبى لمن يقتات من لحمي، ويشرب من دمي،
ويسير من نصر الى نصر

على اشلاء اطفالي،
ومن فتح الى فتح
على انقاض أمالي،
وأطلال المدن!
طوبى لمن بيمينه في الظهر يطعنني،
وبقبض، باليد الاخرى، الثمن!

طوبى لمن في الرمل يدفن رأسه،
ولكل من اضحى بلا بصر ولا سمع!!
طوبى لسيدهم، وللسياف، والنطع
طوبى لذبحي الآن،
حسب قواعد الشرع!!

Digitized by Birzeit University Library

تجريبية في نبش الذات

وسيم الكردي

(١)

... لكلّ منّا تفاحته التيّ تغويه، وتنزاح به في لحظة ما، في موقف ما، في حالة ما، عمّا هو إنساني فيه، تغويه في قمة وعيه، وتغويه في قمة هذيانه، قد يكون الانزياح صغيرا، بسيطا تافها، عرضيا. وقد يكون كبيرا، عميقا، جديا، مقصودا ... .

الا انها الغواية، التي نستوعبها، ونتجاوزها في الحالة الأولى، وقد تتمكن منّا في الحالة الثانية، فتشدنا الى حضيضها. فهل يجرؤ كلّ منا -وفي الحالتين- ان يضع مكان «تفاحتي» غوايته ... لنجرب ... .

الغواية

تفاحتي غَيّ
فأقطفها من الملكوت
حين يشق أوصالي
وأدرفها مقطّعةً
على محراب أوقاتي
وأمنحها مكان الشهوة الحرّى
فتسبقني الى طقسٍ
يفتت شهوتي الأخرى
التي ركنت بأحداقي
تفاحتي غَيّ
تشتتني اذا لمت تفاصيلي
وتسكبني على ميقاتها وجعا
تلذ أصوله الأولى
وتربكني إذا انثالت
على جسدي مواعيدي
تفاحتي غَيّ
وكل الغَي تفاحٌ بنرجستي
يداعبني ... فينفويني
تفاحتي غي
فأسكبها على جسدي الذي نبحا
ألفُّ الرأس منقضّا على قدمي
ألاحقها ... أعضُّ تشققا فيها
فتغويني ... وأغويها
كأن الغَي تكويني
وتفاحي يعلقني على حبلٍ
يسورني ... ويغويني

***

(٢)

... أن تكون شاهدا، يعني ان تشاهد بعينيك، وتشهد بلسانك، وهذا اختيار لموقع، لمكان، قد يكون قريبًا من حلبة الفعل، لكنه - بالتأكيد - خارجها. ولا شك أن في ذلك اختيار. ولكنه اختيار ناقص في حريته، لأنه يسحب ذاتك قسرًا عن ماهيتها، عن موقعها، عن فضائها الذي تتحرك فيه، عن كينونتها، فهل تستطيع ان تتخذ اختيارا حرا ينزاح بك عن أن تكون شاهدا وحسب ...؟!!.

دعوة

- متيبّساً
كطلائع الصفصافِ
لمّا تعتريها الريح
تأتي شاهدا:-
« هذا الهواءُ
يقضُّ رأس اللين في جسدي
ويسري راكضا في النسغِ
يبغي جذر قنديلي
ليطفىء ما توجّسَ..
ما تحرّكَ ...
ما يرى
الكون شهيا،
عابقا، ألِقا، نهارياً ...
فيحتدم اللقاء الضدّ ...
هذا ينفثُ الريحَ
وهذا يحضن النورَ ... و ....»
- قم يا قارئي ... واصعدْ
وَقِفْ مع مَنْ تريدُ ...
لأنني لما كتبتُ ...
رأيتُ قولك شاهدا
لا ساعدا.

Digitized by Birzeit University Library

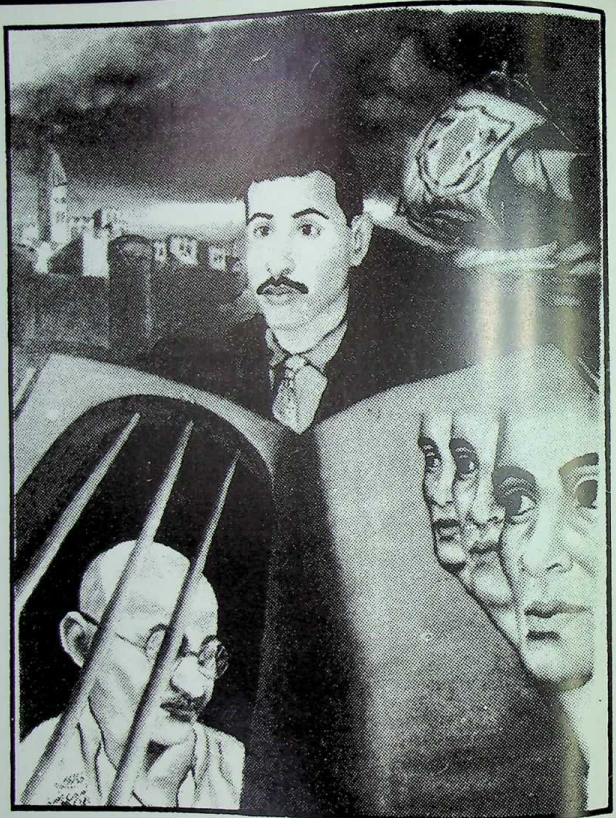

لوحة بين الامس واليوم

سليم جبر الزريعي (٤٣ عاما) المعتقل في سجن نفحة الصحراوي، هو اقدم معتقل فلسطيني في سجون الاحتلال حيث امضى حتى الان ٢١ عاما، لا اعتقل بتاريخ ١٩٧٠/٧/٢٧ ضمن وحدة فدائية «تسللت» الى قطاع غزة.

حكم على هذا المواطن الفلسطيني - وهو من سكان مخيم البريج بقطاع غزة بالسجن مدى الحياة وامضى حتى الان ٢١ عاما. وقد رفضت اسرائيل اطلاق سراحه ضمن عملية تبادل الاسرى في عام ١٩٨٥ وترفض حتى الان اطلاق سراحه.

المعتقل اعزب، ويعاني من عدة امراض، وقد رسم هذه اللوحة في ١٩٩١/٦/١ احد زملاء المعتقل في سجن نفحة، وهي تصف التغيرات التي احدثها عامل الزمن على ملامح المواطن المعتقل. وقد وزع اهل المعتقل هذه اللوحة على الصحفيين خلال اعتصام اهالي المعتقلين في مقر الصليب الاحمر بغزة.

Digitized by Birzeit University Library

الحلم الحرام

الدكتور سبيرو عيسى الطمس

كنا صغارا حين صحونا ذات يوم لنرى طبقة رقيقة من الرماد تغطي ساحة الدار، وأصابنا ذهول حين تمتمت جارتنا العجوز ... هذه علامة آخر الدنيا ... ليلتها لم ننم. كان علينا ان ندفن احلامنا الصغيرة ونموت معها.

ولم تنته الدنيا ... كبرنا وكبرت احلامنا، حتى سقطت القدس اسيرة ... وصحونا لنرى أنفسنا اسرى. لم نصدق ... واصابنا ذهول حين تمتم جارنا المجرب بان علينا ان نختبيء في أحد الاديرة ... لانهم سيقتلون الرجال. ومرة اخرى كان علينا ان ندفن احلامنا حين عدنا الى البيت ولم نجد ديرا واحدا يفتح ابوابه لننجوا وتنجوا احلامنا.

وكبرنا في الاسر ... وكبرت احلامنا الاسيرة، نشهرها حينا، ونخبئها احيانا كأحلام حرام، نلونها ... نغير شكلها مع تغير الطقس ... نغني لها ... نقهر باسمها السجن والموت، نطعمها عمرنا، ونسقيها حزننا لتورق احلاما جديدة ... ومع كل يوم جديد، كنا نكتشف ان الحزن صار ينمو فينا، يتسلق احلامنا، فاختلط علينا الحزن الحالم، بالحلم الحزين ... حتى صار للحزن فينا رونقا.

هكذا كبرنا ... وكبر الحلم المزمن فينا حتى ازهر، وتخطى أريجه جدار الرهبة وتناثر في كل الارض. وذهل العالم هذه المرة، حين اكتشف بان لدمنا لون أحمر ... ثم ذهلنا حين رأينا العالم يدمن رؤية هذا الدم.

واليوم، والارض ما زالت كروية ... ولون الدم أحمر في كل اللغات، عادت طبقة الرماد تغطي بلادنا الاسيرة ... فهل هي علامة آخر الدنيا، كما قالت جارتنا العجوز، هل سندفن حلمنا ... ام نتبنى حلم سادة الارض القدامى الجدد، ونقنع أنفسنا بأن حلمنا سيمشي على الارض حرا..

واذا رفضنا دفن حلمنا والموت معه ... هل تراهم سيحيلون لجنة تفتيش دولية، تتولى تدمير حلمنا الساكن فينا ...

Digitized by Birzeit University Library